سادة القافلة 15

جوهرة هامون

ذكريات من حياة الشهيد القائد
الحاج قاسم مير حسيني

أحمد دهقان

دار المعارف الإسلامية الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

الـــكـــتـــاب: **جوهرة هامون** - ذكريات من حياة الشهيد القائد الحاج قاسم مير حسيني (سادة القافلة 15)

إعداد وكتابة: أحمد دهقان

تـــرجـــمـــة: مركز المعارف للترجمة

إصـــــــدار: دار المعارف الإسلامية الثقافية 2017

ISBN 978-614-467-000-2

سادة القافلة 15

جوهرة هامون

ذكريات من حياة الشهيد القائد
الحاج قاسم مير حسيني

أحمد دهقان

دار المعارف الإسلامية الثقافية

الفهرس

إشارة 7

المقدمة: 9

الفصل الأول 11

الفصل الثاني 27

الفصل الثالث 39

الفصل الرابع 96

الفصل الخامس 85

الفصل السادس 103

الفصل السابع 131

الفصل الثامن 147

الفصل التاسع 167

الفصل العاشر 193

إشارة

لم نجد أفضل من كلمات الإمام الخامنئي دام ظله تقديمًا لهذا الكتاب؛ إذ يقول: «إنّ ذكريات السنوات الثماني من الدفاع المقدس صارت ثروة وطنيــة عظيمة. وفي هذه الذكريات مــن الكثرة والتنوع والعمق والنطق ما يعجــز أيّ لسان ناطق ولغة معبرة عن بيانها بأسرها وبكل أبعادها. ..فلقــد مضى علــى الحرب ثلاثــون عاماً تقريبــاً. واليوم حــين يُؤلّف كتــابٌ عنها، أنا العبد الحقير، رغم أني كنتُ حاضراً وشاهداً ومحيطاً بالكثــير من الأمــور، حين أقرأ ذلــك الكتاب، أطّلع علــى مقدارٍعظيم وعــالم كبير من المسائل التي يطرحها بشــأن الأشخاص والشخصيات والأقــوال والحِكَم. وما نُقــل عني ليس من كلامــي، وإنما هو من كلام مقاتــل همداني حيث قال: «إذا أردتَ اجتياز الأسلاك الشائكة، فعليك العبور أولاً من أسلاك نفسك الشائكة». نحن حينما نكون أسرى أنفسنا لا يمكننا إنجاز شيء. هذا ما علّمنا إياه هؤلاء المجاهدون.

.. إنّ أحــد مصــادر القــوة الثقافية، هــذا النبع الفياضــ لطاقات الدفــاع المقدســ. إذا استطعنا استثمــاره، ستقوى ثقافــة البلد، وبهذا يتحقــق الإنتاج الثقافي. ففــي الحقل الثقافي، كما هــو الأمر في المجال الاقتصــادي، إذا لم ننتج حاجاتنا بأنفسنا سنضطر إلى الاستيراد من

الخارج.. يجب ترويج الكتاب والمفاهيم، وعرضها في قالب الفنّ أيضًا، وإدراج أفضلها في الكتب الدراسية، وتخصيص محاور في مناهج الجامعات حول قضايا الدفاع المقدس. فلا نسمح بأن تضيع هذه القضية بكل سهولة».(كلمته في لقاء القائمين على « راهيان نور » 2017/3/6)

يعرّف الحاج قاسم سليماني رفيق دربه «مير حسيني» فيقول: «كان كبير فرقة «ثار الله 41»، وهو الشخص الذي ما زلتُ لحدّ الآن أشعر بغيابه في كلّ مهمّة؛.. لقد كان صاحب روح عظيمة، كان بمنزلة مالك الأشتر بكلّ ما للكلمة من معنًى. .. كان قائدًا بكلّ أبعاد القائد الإسلامي وفق التعريف الأصيل لأمير المؤمنين عليه السلام .. كل من كان يستمع إلى تلاوته القرآنيّة العذبة يصاب بالذهول. كان خطيبًا؛ وإذا شرع بالكلام، كان ــ بحسب تعبير الشباب ـ يسحرُ القلوب. وكانت كلّ كلماته مصحوبةً بشواهد الآيات والروايات.

.. أما في البعد القيادي، فلقد كان صاحب الرأي الأكثر صوابيّةً في الجلسات بشكلٍ دائم..

..أُشهدُ الله إنّني لم أشاهد في وجه الشهيد مير حسيني أيّ نوع من الخوف، وفي أصعب الظروف.. كان هذا الشهيد العظيم يقفُ ثابت القدم، وكنا جميعًا نُذهل من تحرّكاته.. كان يعبّئ الشباب ويحرّكهم ويمازحهم في تلك اللحظات الحسّاسة.

.. لم أشاهده يومًا يترك نافلة الليل، كما إنّني لم أشاهده ينهي نافلة ليلٍ من دون بكاء، والله شاهدٌ، أنّنا كنا نستيقظ على بكاء هذا الشهيد العظيم،.. كان عالَمًا لا حدّ له من العرفان.

..أقسم بالله إنّ مجيء مير حسيني عند اشتداد وتعقّد وضع

الجبهة، كان كمجيء فرقة بأكملها، .. كان الشهيد مير حسيني أوّل من يتقدّم وآخر من يرجع.

إنّني لم أشاهد الشهيد في أيّ وقتٍ يتحدّث عن نفسه أنّه منقذ العمليّات الفلانيّة وو.. لقد كان جنديًّا مجهولًا». (قاسم سليماني-ذكريات وخواطر؛ ص 71-72)

في هذا الكتاب؛

سعى أحمد دهقان بأسلوبه الروائي الجديد إلى الكشف عن واحدة من الشخصيات التي أوجدت تحولات في الجبهات؛ وثروة من الثروات الثقافية التي تحدّث عنها الإمام الخامنئي..

في رحلة تعرّفِه إلى "ميرحسيني"؛ وبأسلوبه الشيّق؛ يأخذنا الكاتب - في زمانه الحاضر- على أجنحة ذكريات مفعمة بالحياة ناضِحة بآيات الصدق؛ مقتفيًا آثار "جوهرة" مكنونة؛ فيعرّج على ذاكرة الأصحاب ويرتشف من عبق مرويات خُطّت بأقلام وصفتْ بعضاً من تضحيات عالم الشهداء وجميل ما رأوا وجمال ما صنعوا..

يسر مركز المعارف للترجمة أن يقدم هذا الإصدار الجديد «جوهرة هامون» في سلسلة سادة القافلة التي تصدر تباعًا؛ ضمن مجموعة أدب الجبهة؛ ولا يسعنا إلا أن نشكر كل من ساهم في هذا العمل لا سيما:

المترجمة: إيمان صالح؛. المحرّرة: حنان الساحلي؛. المصحح اللغوي: عدنان حمود؛. المخرج الفنّي: علي عليق.

وكذلك الشكرُ موصول للإخوة في دار المعارف الإسلامية الثقافية الذين نشروا الكتاب.

مركز المعارف للترجمة

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ آل عمران 170

مقدّمة الكتاب

نحمد الله الذي وفّقنا لنخطّ على صدر هذه الصفحات البيضاء كلماتٍ نُسجت بغزْلِ العاطفة والمشاعر الرقيقة، لتظهر أصالةً وبراءةً؛ أشبه بقداسة النور والغيث وكرامات الأئمة عليهم السلام.

صحيح أنّ المجال لا يتّسع لأداء حق أولئك الذين عرجوا إلى فلك الأفلاك؛ ممتطين صهوة الشهادة القانية؛ لكنه شرّع لنا كوّة نطلّ منها على المعرفة الوارفة التي غَرَست في أذهاننا معاني ومفاهيم العزّة والعظمة لثلّة من رجال الله الأخيار.

وقد اجتمعنا في أكثر مراحل التاريخ جلالة، أي عصر الثورة الإسلامية، لنكرّم ذكرى رجالٍ أطهارٍ تناثرت أكمامهم لتتفتح أكمة أخرى، وقد ازدانت حياتهم، بل ومماتهم بالصلابة والإعجاز الواهب للحياة. ولا عجب إن لمسنا هذا الكمال والفخر والكبرياء والإعجاز في شخصِ قائدهم - الذي بفضل أنفاسه القدسية ونهضته الإلهية - كُتب

لهذه الأمة البقاء والاستمرار. وقائدٌ كالخميني الذي هو بحقٍّ روح الله، يتطلب موالين كهؤلاء هم رهن إشارته، يتنافسون على مسرح العشق في نشر جواهر أرواحهم، ويصلون إلى أعمق وأجمل المفاهيم الإنسانية والإلهية في سوح مقارعة الحق للباطل، وكأنّ مشهدًا أقدسَ وأعمقَ وفاءً لأصحاب الإمام الحسين عليه السلام، يتكرّر في زماننا وأرضنا!

إنّ الذكرى الندية لهؤلاء المتواضعين الذين التحقوا بالملأ الأعلى والذين عبقتْ حياتهم بالفخر والحيوية، قد أسّست لانعقاد هذا المؤتمر التكريمي لشهداء الحرس الثوري و8000 من شهداء محافظتي كرمان، وسيستان وبلوتشستان، وما هو إلا فسحة للوفاء ببعض دَينٍ في رقابنا لأولئك الأشاوس الشامخين في تاريخ الإسلام، ولا شك أنّنا عاجزون عن الإيفاء بذلك في خضمّ هذه اللجج المتلاطمة.

لا يسعنا هنا سوى أن نتوجه بالشكر لكل من ساهم بنحو في كتابة وتأليف ونشر كتب ومذكرات شهدائنا العظام، خاصة مؤلف هذا الكتاب وكل من ساهم في نشره وتوزيعه.

أتمنى أن تتبع هذه الخطوة خطوات أوسع وأكمل؛ في هذا الطريق المحفوف بالمشاق؛ لتكريم شهدائنا. وحقًا، نبقى قاصرين عن تحقيق ذلك مهما حاولنا.

وفي النهاية، أهدي سلامي وإخلاصي لقائد ثورتنا المبجّل الحامي الأكبر لقيمنا.

قائد فرقة «ثار الله 41» والأمين العام للمؤتمر
سردار قاسم سليماني

الفصل الأول

بين يديّ ثلاث علب كرتونية بنّيّة اللون ورسالة تقول:

«السلام عليكم،

أرسلُ إليكم مجموعة من الكتابات حول حياة الشهيد «مير قاسم مير حسيني» للإفادة منها في تأليف كتاب المذكرات، كما أُجريت التحضيرات اللازمة تمهيدًا لسفركم إلى سيستان ليتسنّى لكم إجراء المزيد من التحقيقات ومقابلة أشخاصٍ عايشوا الشهيد والتقوا به في جبهات القتال في الخطوط الخلفية والأمامية. وقد حُدّد موعد سفرك في نهاية الأسبوع».

أتفاجأ بالأمر! رجل لا أعرف غير اسمه، وثلاث علب كبيرة مليئة بالأوراق!

آخذُ العلبة الأولى وأفرغُ الأوراق المستنسخة بداخلها على الأرض. ينتابني الخوف من كثرتها. أحمل آخر ورقة وقد دُوّن عليها الرقم 1834. أضربُ الرقم بثلاثة فيأتي حاصل الضرب صادمًا!

لا أدري من أين أبدأ. أعاهدُ نفسي أن أقرأ جميع الكتابات، ومن ثمّ أضعُ مخططًا ذهنيًا وأبدأ الكتابة.

أشـرعُ بتصفّـح الأوراق ووضـع برنامـج ذهنـيّ للسفـر. فهـذه هي المـرّة الأولى التي أسافـر فيها إلى سيستـان التي لها في مخيّلتـي صورتـان مختلفتان: صـورة سيستـان الأساطير والآداب الضاربـة في عمـق التاريخ، وسيستـان وبلوتشستان التي ترسخت صورتها في ذهن كلّ إيراني معاصر.

أمسـكُ بإحـدى الأوراق، وقـد كُتـب في أعلاهـا اسـم «رضا منصور بستاني»، وأبدأُ القراءة:

تعرفـتُ إليه قرب صهريـج الماء حيث كنت أمضـي خدمة العلم في الكتيبة 148 مـن فرقة «خراسان 77». كنتُ غريبًا، كانت الغربة أحيانًا تنهش فؤادي فأتذكر سيستان لكن...

ذلـك اليوم، كنتُ أقف بالقرب مـن صهريج الماء. جاء وتحدث إلى أحدهم. أصغيت إلى كلامه؛ كان يتحدث باللهجة الزابُلية[1].. كأنني في حلم! لم أصدق أننـي سأجد في هذه البرّية من يتحدث بلغتي ولهجتي. أسرعت نحوه وسألته: «هل أنت زابليّ يا سيد؟».

قال: «نعم»، ورحنا نتجـاذب أطراف الحديث. عندما همّ بالمغادرة قـال لي: «نحـن جيرانكم وسآتـي لزيارتـك ثانية». طبعًـا وفى بوعده وزارني ثانيةً.

في الحقيقـة، لم أعـرف حينها أنه معاون قائـد فرقة «ثار الله 41»، وعندمـا علمتُ ذلك خجلت كثـيرًا من نفسي، فأنا لسـتُ سوى جنديّ بسيط، بينما هو معاون قائد فرقة، لكنّه متواضع..

1– زابل: مدينة في محافظة سيستان وبلوتشستان تقع على بحيرة هامون.

أقلّبُ الصفحات، هنا تحدّث «حسين صحرا نفرد»[1] عن كيفيّة تعارفهما:

ذهبتُ إلى الجبهة أول مرة في تشرين الثاني أو كانون الأول من عام 1982م. كنت قد سمعت كثيرًا عن «مير حسيني»؛ لكنني لم أكن قد التقيت به بعد. من خلال ما سمعته عنه، تخيلته رجلًا ضخمَ الجثة يحيط به 4 أو 5 مرافقين. طالما تحدث المقاتلون عنه خاصة القدامى منهم الذين أسهبوا في سرد ذكرياتهم معه.

في أحد الأيام، ذهبتُ مع عدد من الرفاق للتجوال في محيط المعسكر. أنا و«صفر زاده» وعدد من المقاتلين القدامى. جُلنا هنا وهناك إلى أن قال «صفر زاده»: «هذا حقل ألغام يتدرّب فيه الرفاق من وحدة التخريب، فلنذهب إليهم».

انطلقنا وكان علينا عبور القناة، ثم الأسلاك الشائكة، فحقل مليء بأنواع الألغام. كنا نتقدم داخل القناة إلى أن قال صفر زاده: «توقفوا كي لا نعلق في الألغام».

لم نكن قد التفتنا إلى الألغام المزروعة حتى قبل دخول القناة، والتي اصطدمنا بها في طريق العودة. قال صفر زاده: «لا تتحركوا من أماكنكم».

كنا 4 أو 5 أشخاص، وفي المقدمة «صفر زاده» الذي راح يفكك الألغام المزروعة في طريقنا، ومن بينها ألغام مضيئة. عندما خرجنا من القناة قال «خوش نظر»: «ماذا نفعل بهذه؟».

1- تكتب بالفارسية نورد وتلفظ NAVARD.

كان «خوش نظر» قد أحضر معه عددًا من الألغام واقترح أن نحرقها.

أشعلنا النار وألقينا فيها أحد الألغام المضيئة، فارتفع لسان اللهب الأزرق في السماء، وغطى المكان سحابة من الدخان.

بدأنا نهرول خوفًا، وفي تلك الأثناء صرخ أحدهم: «لقد جاء مير حسيني!.. مير حسيني».

أقبل شاب بسيارة جيب نحونا فعطفنا طريقنا وفررنا. من اليوم التالي، شاركنا في المراسم الصباحية حيث اصطفّت قوات الألوية الثلاثة: «حزب اللّه، جند اللّه، روح اللّه». بعد تلاوة القرآن الكريم والمراسم، اعتلى مير حسيني المنبر وتلا آية من الذكر الحكيم ثم بدأ الكلام. لم أكن أتصور أنه محدّث لبق إلى هذه الدرجة، فقد جُذبنا جميعنا وسُحرنا بكلامه حيث قال:

- أيها الإخوة! لِمَ تعبثون بحقل الألغام؟ ماذا لو انفجر أحدها..

عندها فقط أدركنا خطورة عملنا. استأتُ من نفسي كثيرًا وخجلت من عتاب مير حسيني لنا. الأمور الجديدة التي شاهدتها في الآونة الأخيرة، غمّ البعد عن الديار، عدم التشابه ما بين الصورة التي خلتها عن القائد والحقيقة التي تبعد عنها كل البعد، سلوكنا الخطر وتأنيب الضمير المختلف كليًّا عن أيّ تأنيبٍ آخر تعرّضتُ إليه خلال سنوات حياتي و... كان لكل شيء طعمٌ آخر في الجبهة!

أغرقُ في القراءة، كانت النقطة المشتركة بيني وبين هؤلاء، أنني توقفت عند بداية التعرّف إليه. لقد تعرّف كلٌّ منهم إليه

في مـكان مختلـف. يلفـت نظـري أوراق مطوية قـد كُبست معًا في قعـر العلبة مكتوبة بالحـبر الأزرق على عكس باقي الأوراق المستنسخة:

«كتبت هذه السطور القليلة من المذكرات تلبية لطلب أحد الأصدقاء وهذا ما تذكرته بعد مرور حوالي 15 سنة. هكذا تعرفت إليه..».

الطريـف في الأمـر أيضًـا أنـه تحدّث عـن أول لقـاء له بمير حسينـي، وانتابنـي فضـولٌ لأعـرف كيـف تعـرّف إليـه باقـي الأشخاص:

كنـت في كتيبة الهجوم، انتهـى عملي وعدت أدراجـي إلى الخطوط الخلفية. ركبت شاحنة تويوتا صغيرة (بيك أب) وعندما غيّرتْ وجهتها عند مفـترق الطرق، اضطـررتُ للترجُّل منها. حينهـا وقع نظري على مـرآة الشاحنة وشاهدت قيافتي التي تغيّرتْ كثيرًا بسبب التراب والحرّ والعرق. وقفتُ في الجهة المقابلة للطريق. رأيتُ أحدهم يقف إلى جانب الطريق الموصل إلى الخط الأمامي، ما إن رآني حتى أقبل نحوي وسألني: «هل عدتَ الآن من الخط الأمامي يا أخي؟».

أجبتـه: «نعم»، ثـم سألني عن الأوضاع هناك وعـن أوضاع الكتيبة والسّرية التي كنت فيها.

– كنت في «كوشك»[1] والأوضاع في الخط هناك لا بأس بها.

كما أخبرته أنّني كنت في سرية الشهيد صدوقي من كتيبة فاطمة

1- كوشـك: اسـم منطقة، وقد سُمّي كتاب «تراب كوشك الناعم» باسـمها، وهو الإصدار الأول من سلسلة سادة القافلة.

الزهراء عليها السلام. عندها، سألني وهو ينظر إليّ من رأسي إلى أخمص قدمي:

– من أين أنت؟

– من سيستان، جزنيك زابل.

فجأة، انفرجت أساريره، دنا مني أكثر وسألني عن اسمي واسم والدي والحيّ الذي أسكنه وغيرها من الأسئلة.

كنا لا نزال نتحدّث عندما وصلت شاحنة تويوتا، ترجّل منها سائقها وأسرع نحونا قائلًا: «أخ مير حسيني! كتيبة الإمام الحسن العاملة مقابل مخفر زيد، وعلى مسافة من مخفر الحسينية، لم توفّق في مهمتها، وقد طلبوا منك التوجه في أسرع وقت لاستطلاع الأمر في الخط إذ يجب اقتحامه والتقدّم مهما كان».

بعد هذا، أصرّ الرجل الذي عرفت للتو أنه مير حسيني عليّ لأعود إلى المعسكر. لكن السائق طلب مني مرافقة مير حسيني إلى الخط. وبما أنني رغبت بذلك كثيرًا، أصررتُ على مرافقته فوافق. ركبنا شاحنة التويوتا وانطلقنا نحو الخط الأمامي.

عندما وصلنا إلى مفترق كوشك– مخفر زيد، حَرَف مير حسيني المسير نحو الخط الذي قيل إنّه يعاني من مشاكل. قلت:

– سمعت أن الوحدات العاملة هناك قد أخفقت وسيطر العراقيون على الساتر الترابي.

ضحك عاليًا عندما سمع مقولتي هذه وقال:

– الأمر ليس كما يقولون، فالخط ما زال بأيدي مقاتلينا، إذ لدينا هناك لواء مشاة مؤلّف من 6 عناصر.

ظننت في البداية أنه يمزح، لكن عندما وصلنا أدركت أنه كان جادًا، فلم يكن في الخط غير 6 عناصر، أحدهم سيد يعتمر عمامة خضراء ينادونه بـ«سيد»، وآخر من أبناء «سيرجان» يدعى «رئيسي».وسأخبركم عن كيفية تعرّفي إليهم:

عندما اقتربنا من الخط، أوصاني مير حسيني أن أقفز من الشاحنة بمجرد توقفها وأن أجد لنفسي ملجأ مناسبًا، فالمنطقة كانت تحت أنظار العدو ومرمى نيرانه. أمطرنا العدو بوابل من الرصاص فتصاعد الدخان والغبار والتراب من حولنا وانعدمت الرؤية حتى لمسافة 10 أمتار. خفّفت الشاحنة سرعتها فقفزت منها ولم أرَ أين ذهب مير حسيني أو السائق. غطّت نيران العراقيين المنطقة بتمامها، فألصقت رأسي بالأرض وتوقعت أن تخترق رصاصة صدري في أيّ لحظة. مرّت حوالي 4 دقائق قبل أن تخفّ حدة النيران، عندها رفعت رأسي. لكنّ الغبار والدخان والبارود حجبت عنّي رؤية ما حولي. ناديت مير حسيني عدة مرات، لكن من دون جدوى، فخشيت أن يكون قد استشهد هو والسائق.

بعد دقائق، انجلى الغبار والتراب. نظرت في الأنحاء، فلم أرَ أثرًا للشاحنة، وأدركت أنها نجت. في تلك الأثناء، سمعت صوت مير حسيني عن يميني، يناديني من مسافة 100 متر تقريبًا مهرولًا نحوي. لم أستطع أن أجيبه مخافة أن يعرف الراصد العراقي الذي لا يبعد عني أكثر من 100 متر أنني على قيد الحياة. عندما رأى أنني لا أجيب أو أتحرك، ظنّ أنني إما استشهدت أو جُرحت. نظرت إليه بطرف عيني. كان يعدو مسرعًا نحوي وعلى مسافة حوالي 4 أمتار مني، رمى بنفسه في حفرة ثم ناداني بصوت خافت. أجبته وحذرته من الراصد العراقي:

- من الأفضل أن لا تتحرك.

سكتنا وبقيت متظاهرًا بالموت بينما راح مير حسيني يراقب الراصد العراقي ثم قال لي:

- عندما أبدأ بالركض انهض من مكانك واتبعني.

ما هي إلا لحظات حتى انطلق من حفرته بسرعة البرق فلحقت به. قطعت مسافة 100 م للوصول إلى الساتر الخلفي بسرعة لم أعهدها من قبل. فالفاصل بين الحياة والموت منوط بطول خطواتنا وقصرها.

وصلنا إلى الساتر الترابي لاهثين، كنا في غاية السرور لأننا ابتعدنا عن مرمى نيران الراصد العراقي. على مسافة 30 أو 40م، نُصبتْ نقطة مراقبة أخرى للعراقيين، ولولا أزيز الرصاص المتفرق لكنا سمعنا أصواتهم وصراخهم بوضوح. اضطررنا للتحدث ونحن منبطحين تقطيعًا للوقت.

قال مير حسيني: «ابقَ هنا كي أخبر الشباب بالانسحاب من المنطقة عند الساعة الثامنة».

لم أفهم قصده. ذهب وبعد عدة دقائق رأيت أحدهم مقبلًا نحوي. هنا تعرفت إلى «رئيسي». كان يلهث ويضحك في آن. مدّ يده نحوي وقال: «أنا رئيسي يا سيدي، من أبناء سيرجان».

ضحكت لطريقة كلامه. تصافحنا؛ وجاء البقية فتعرّفت إليهم ومكثت مع كل واحد دقيقتين أو ثلاثًا، كما تعرّفت إلى السيد هناك حيث أصيب بجروح. وزّعَنا «مير حسيني»، وتقرر أن ننسحب إلى الخلف. ليتقدّم عنصران إلى الأمام وثلاثة آخرون يحملون السيد،

ثـم انطلقتُ أنـا في أثرهم ومـن خلفي «مـير حسيني» الـذي حدّد لنا المسـير قائلًا: «انطلقوا بفاصـل مسافـة 100 إلى 150م إلى أن تصلوا إلى الدبابتـين المحترقتين، حينها توقفوا وانتظـروني هناك». انطلقت المجموعـة الأولى، ثم حملت المجموعـة الثانية السيد وتحركوا. بعدها، نهضت من مكاني وبـدأت بالركض خلفهم، كان «مير حسيني» قد أكّد علينا أن نركض ما استطعنا.

بعـد أن قطعـتُ حوالي 800 مـتر، فوجئـتُ برتل مـن المقاتلين عن يمينـي، يقدَّر عددهم بكتيبـة. انفصل عنه عددٌ مـن العناصر وأقبلوا نحـوي. ظننت أنهم عراقيون، فأطلقـت العنان لقدميّ. عندما اقتربوا منـي مسافة 30 مترًا تقريبًـا، رميتُ بنفسي في إحدى الحفر ثم نطقتُ بالشهادتـين وترقبتُ وصولهم. كانـوا يتحدثون باللغة الفارسية فذهب عني الروع وصرخت: «لا تطلقوا النار، أنا إيراني».

دنوا مني فنهضت من مكاني وتعانقنا. سألوني:

- من أين أتيت؟!

حدّثتهم بما جرى معي. ثم سألني أحدهم:

- هل كانت المجموعة التي تنقل الجريح معك؟

قلت لهم: «نعم»، ثم أشرت إلى أماكن نقاط المراقبة العراقية وخط الأعداء. فقالوا لي:

- إذا كنت تخشى الانسحاب وحدك فلنرسل معك من يرافقك!

- لا! فالأخ «مير حسيني» آتٍ في أثري.

كانوا يعرفونه فسأل أحدهم ممازحًا: «تقصد ابن خال رستم[1]؟». ضحكتُ وودعتهم متابعًا انسحابي.

في الجانب الآخر للقصة، أن «مير حسيني» عندما رأى من بعيد أنني قد حوصرت وأنهم يقومون باستجوابي، ظنّ أنني أُسرتُ، فأكمل انسحابه من طريق آخر. وصل إلى باقي الإخوة وأخبرهم أنني أُسرت ثم اصطحب معه ثلاثة عناصر وعاد ليُحرّرني. وبما أنني شعرت بالأمان لوجود المقاتلين، تابعت سيري بهدوء ولم أكد أقطع مسافة 400 متر تقريبًا، حتى التقيت بـ«مير حسيني» وعناصره. تعانقنا وسألني بتعجّب:

- ألم تقع في الأسر؟

أجبت ضاحكًا:

- لا يا أخ مير حسيني، الشباب من لواء «المهدي 30» من أبناء شيراز. وقد أوصاني أحدهم أن أقول لك إنّ «ابن عم سعدي[2]، يهدي السلام إلى ابن خال رستم!».

عرفه «مير حسيني» فورًا وقال:

- إنهم ذاهبون في مهمة للسيطرة على المثلثات[3]

تابعنا سيرنا نحو الخطوط الخلفية ووصلنا إلى حيث ينتظرنا عنصران آخران. وبعد دقائق معدودة، مرّت كتيبة أخرى، وهي كتيبة الدعم والإسناد لكتيبة الهجوم على المثلثات. كانت الآليات أيضًا تتقدّم

1- رستم بطل أسطوري خيالي.

2- سعدي: أحد أهم الشعراء الإيرانيين القدماء، من مدينة شيراز.

3- قد يقصد مثلثات الطرق، أو السواتر الثلاثية الأضلاع.

فركبنـا إحدى شاحنـات التويوتا الصغـيرة وعدنا إلى الخلـف. لم أرَ العناصـر الستـة ثانية، لكننـي التقيت مرات ومـرات بـ«مير حسيني»، حامل لواء منطقتنا «سيستان». حقًا! إنه فخر «هامون».

كنـتُ لا أزال غارقًـا بالمطالعـة. أسحـبُ علبة أخـرى حُزمتْ بشريـط بلاستيكـي أصفر اللـون. لم أفلح في حـلّ عقدته مهما حاولـت، فأستعـين بأسنـاني. أفتـح العلبة وأرى صـورةً تعلو الأوراق. آخذهـا. كانت لرجل يحملُ مكـبّر صوتٍ ويقفُ خطيبًا مقابل جمـوعٍ ترتدي اللباس العسكري تقـف كأن على رؤوسها الطير مصغيةً بانتباه إلى خطابه. أُمعنُ النظر في ملامح وجهه، كان نحيـلًا وذا ملامحَ رقيقةٍ وأنفٍ ظريف. لم أعرفه! أنظرُ خلف الصـورة وقد كُتِبَ عليها بخط مِعوجٍّ: «الشهيد القائد مير قاسم مير حسيني، مساعد فرقة «ثار الله 41»».

أنظرُ إلى الصـورة ثانية، لم أكن أعتقد أنه الشاب نفسه الذي مـن المقرر أن نقضي معه أيامًا وليـالي. لقد كان تعارفنا إليه غير متوقّع.

أتصفّحُ الأوراق وآخذ إحداها. هي كلمات رضا نور إلهي:

«ربمـا لن تصدّقوا، لكنني لم ألتقِ «مير حسيني» أكثر من مرتين، كانت المرة الأولى في عام 1981م حين ذهبت لعيادة أحد الأقارب في أحد مستشفيات طهران. وقفتُ متحيّرًا في «ساحة آزادي»[1] لا أعرف أين أذهب. فجأة، وقع نظري على شاب حسن الهندام، تقدّمت منه وسلّمت عليه، ثم أخبرته بحالي. كان زابليًا من أبناء مدينتي فقال لي: «لنذهب معًا».

1– ساحة الحرية.

في ذلك الوقت، كان يتلقّى التدريبات في ثكنة الإمام علي عليه السلام. ذهبنا بداية إلى المستشفى ومن ثم إلى الثكنة. وعند العصر ذهبنا إلى ساحة «تجريش» واشترينا بعض الكتب.

بعد ذلك اليوم، كان الرفاق الذين يذهبون إلى جبهات القتال يحملون لي أخباره ويحدثونني عن شجاعته، تهجّده وكلامه القاطع ككلام مالك الأشتر... وأحيانًا كان أحدنا يرسل السلام والتحيات بواسطتهم إلى الآخر.

في المرة الثانية عام 1985م في مدينة قم، حيث ذهبتُ مع عدد من الأشخاص إلى منزل الشهيد محمود سعيدي، وكان «مير حسيني» هناك أيضًا. التقينا وتحدثنا، كنت أحمل كتاب «دروس في الفلسفة» فقال: «يا له من كتاب رائع!».

عندها أدركت مدى عشقه للمطالعة. فيما بعد، كنت أتتبّع أخباره عبر الرفاق إلى أن علمتُ أنه في عمليات «كربلاء 5» قد ....

«علي نجيب زاده» أيضًا لديه الكثير ليقوله. تحدّث في كتاباته عن مختلف العمليات، وأعلم أنه يجب أن أستفيد منها في مكانها المناسب، لكن سأبدأ الآن من حيث التقيا أول مرة:

كنّا في عمليات «والفجر 3» داخل خندق. كان العراقيون يحاولون بكل قوّتهم استعادة السيطرة على منطقة «مهران»، وما زالت قذائف المدفعية والهاون تتساقط في الأنحاء محدثة سحبًا من الدخان، وقد تغلغل دخان البارود في حلقوم كل واحد منا.

بدأ العدو هجومًا مضادًا، وكنّا حوالي 70 عنصر دفاع في الخندق

بقيـادة الشهيد أحمد أميني، في المقابل اصطفّتْ قرابة 80 دبابة للعدو لحصارنا.

شـدّ انتباهي ذلك الشـاب الواقف عند آخر الخنـدق يتحدث عبر جهاز اللاسلكي باستمرار. أدهشني هدوء أعصابه، إذ لم يكن يكترث حتى لسقوط قذيفة الهاون بالقرب منه. سألت الشهيد أميني:

– من ذاك الواقف آخر القناة؟

– ألا تعرفه؟ إنه مير حسيني مسؤول عمليات الفرقة.

لقد سمعتُ عنه وعن صيته الذائع، لكن لم ألتقِ به عن قرب. عندما اقترب العراقيّون أكثر، ذهبتُ إليه وقلت له:

– أخ مـير حسينـي، لقد تقدّم العراقيون، ولا نملـك ذخائر أو حتى قذائف آر بي جي، ومعظم قواتنا إما استشهدوا أو جُرحوا..

لم يدعني أكمل كلامي قال:

– لقد حاصرناهم فلا تقلق.

ثم مسح على رأسي ووجهي وقال:

– توجد ذخائر في آخر الخندق، اذهب مع بعض العناصر وأحضرها وسوف نقضي على عدوّنا ها هنا إن شاء الله.

كان ذلك أول لقاء لي بـ«مير حسيني».

أقرّر جمـع الأوراق لأضعها في مكانها لأجهّـز نفسي للسفر، كان ينبغي عليّ إلغاء جميع مواعيدي قبل الانطلاق نحو البقاع التي نشأ فيها وترعرع «مير حسيني».

أُرتّب الأوراق كما كانت، لكن لم أستطع منع نفسي من استراق النظر إلى بعضٍ منها، فتقع عيناي على مذكرات «حسين جهان تاب»:

«قيل لنا إنّ مير حسين سيأتي اليوم إلى مدرستنا لإلقاء كلمة، وأخبرونا أنه من قادة الحرس الثوري. أعتقد أنه جاء في الحصة الثانية واصطففنا في الباحة. لم يبدُ على هيئته أنه من القادة، كان نحيلاً قصير القامة. عندما بدأ كلامه كان التلامذة يضجّون، لكن بعد بضع دقائق خيّم السكون على المكان، وتسمّر حوالي ألف إنسان في أماكنهم مأخوذين بكلامه، وحركاته وسكناته. أذكر أنه قال: «إذا لم تعقدوا العزم أنتم أيها الشباب، وتتطوّعوا للذهاب إلى الجبهات فما إن تنتهي الحرب ستخجلون من الشهداء والشعب...»».

في كل كلمة من كلماته، كمنت قوة خفية سلختنا عن ذواتنا وواقعنا، وفي صباح اليوم التالي تطوّع أغلبُ التلامذة للذهاب إلى الجبهات.

أضعُ الأوراق في المغلّفات الكرتونية، ثم أحزمها بالشريط الأصفر بإحكام. تستحوذ فكرة السفر والتعرّف إليه على تفكيري. حقًّا! أيّ رجلٍ هو «مير حسيني»؟! قرأتُ في إحدى الصفحات أنه استشهد وهو في الـ23 من العمر. هل هذا ممكن؟ هل من الممكن أي يصل شخص في هذه السنّ إلى هذا المقام؛ وأن يجذب إليه كلّ هؤلاء المحبّين والمعجبين في العالم؟

لديّ ألف سؤال وسؤال، وأعلم أنني سأحصل على أجوبتها ما إن تطأ قدماي أرض «سيستان». لذا عليّ الانطلاق من دون تأخير.

الفصل الثاني

قبيل المغيب لا تزال الحافلة تشقّ بأنينها «المتمغّط» المتواصل قلب الصحراء. بدا الضباب وكأنه يلفّ الأجواء، والرياح الساخنة تخترق شقوق النوافذ فتبتلّ ظهورنا بالعرق. خارج النوافذ، رياح عاصفة تذري الغبار والأتربة الناعمة في السماء فيذكرنا بالضباب.

قطعنا مسافة 100 كلم أو أكثر، مسير يوم كاملٍ. وأشعر الآن كمن تعرّض للضرب من قِبَل ألف رجلٍ سيستاني من أولئك الرجال الذين قرأت عنهم في الأساطير وحكايات العهود الغابرة، فكل خلايا جسمي تؤلمني. وها هي الحافلة مليئة بأنواع البشر وهم يرتدون الملابس السيستانية التقليدية والمناديل على رؤوسهم معقودة. من حسنات هذه الرحلة الطويلة، أنّ لديّ الوقت الكافي لأسأل عن المكان الذي أقصده أين وكيف هو؟ يلتفت الرجل الجالس في المقعد أمامي ويقول: «سنصل قريبًا».

كنت أهرب إلى الخارج من العالم المجهول الذي أقترب منه، ألجأ إلى الخارج، أصغي إلى زمزمات الرياح وأخرج من جيبي صورة مَن لأجله قطعتُ هذه المسافات، فأتأمّلها بدقة. الجموع ذاتها والرجل القصير القامة والنحيل ذاته!

أنظر من النافذة إلى حيث يمتد البصر، سهول جرداء منبسطة وصحراء لا نهاية لها. يلتفت الجالس في المقعد أمامي ثانية ويقول:

- دعني أخبرك أن سيستان ليست ما تراه الآن، بل هي خضراء خصبة، يعمل أهلها في الزراعة وتربية الماشية، حتى إنّ والدَ من جئتَ لأجله مزارعٌ، وسوف أخبركَ أين يجب أن تنزل من الحافلة.

يقصد والد مير حسيني طبعًا. ينظر إلى الصورة فأحملها بطريقة تسهل عليه الرؤية. يبتسم فأسأله من دون أيّ مقدمات:

- لم تخبرني كيف تعرفت إليه؟

وكأنما سألت سؤالًا في غير محله، اختفت البسمة عن شفتيه وقال:

- لم أدّعِ أنني أعرفه، لكنني سمعت عن صيته، كما إنّهم رفعوا صورته على رأس جادة «جزنيك»، سأريك إياها عندما نصل.

نصل إلى منطقة ذات ربوات، فراحتْ الحافلة تلتفّ حولها لنستوي بعدها على سهل أخضر. كأنني في حلم وقد قُذف بي من عالم إلى عالم آخر. شتان ما بين هذا المكان وذاك الذي خلّفناه وراء تلك الكثبان!

سهول خضراء على امتداد البصر، مزارع القمح والشعير والبرسيم، قد أنهوا حصاد بعض المحاصيل. بين خيوط الضوء المضمحلة أستطيعُ رؤية رجالٍ ونساءٍ يسوقون أمامهم قطعان الغنم والماعز، وبيوتٍ تتوزّع هنا وهناك بسقوفٍ مقبّبةٍ يتصاعد

دخان كثيف من مداخن بعضها.

تتغلغل من شقوق النوافذ رائحة سنابل الشعير، وينتشر غبار القمح الذهبي في الأجواء. حقيقةً، لم أكن أتوقّع هذا، لقد كانت سيستان مختلفة تمامًا عن تصوّراتي الذهنيّة.

يلتفتُ الجالس في المقدّمة ويقول: «عليك أن تنزل هناك»، ثم يشير بيده إلى نقطة قريبة. أنهض من مكاني بسرعة وأقول بصوت عال: «أريد النزول عند رأس جادة جزنيك».

أودّع القريبين من مقعدي وأتّجه إلى مقدمة الحافلة. وشيئًا فشيئًا، تظهر معالمُ لوحةٍ كبيرة؛ حيث أرى ملامحَ وجه «مير حسيني» بوضوح. تتوقّف الحافلة أمام اللوحة فأنزلُ منها ويناولني مساعد السائق أغراضي من صندوقها الجانبي. ها قد وصلت إلى «سيستان»!

أقفُ إلى جانب الجادة حيث تمرّ سيارة تويوتا بيك أب فأشير بيدي إلى المكان الذي أقصده وأركب. احترامًا لاسم ذلك الشاب السيستاني البهيّ الطلعة، يوصلني السائق إلى باب الدار. أترجّلُ من السيارة وأقرع الباب. أغادر سيارة البيك أب بينما أحدّق بالغبار الذي أثارته خلفها. يُفتح الباب، وظهر رجل عجوز أبيضَ الشعر يذكّرني من دون إرادة مني بـ«زال»[1].

أعرف أنّهم على علم مسبق بمجيئي. أعرّفه عن نفسي ويقول: «أنا والد مير قاسم، الحاج مراد علي».

1– والد رستم، بطل أسطوري في الشاهنامة، و«زال» تعني الشعر الشديد البياض أيضًا.

يضمّني العجوز إليه وندخل معًا. يستقبلني خوار بقرة في زاوية الفناء نمرّ بالقرب منها، كما أرى سيدةً عجوزًا أمام الإيوان.

كثيرًا ما قرأت عن تشبيه الظهر المحدودب بالقوس، لكن لو أردنا الإنصاف في الوصف لقلنا إنّ ظهر هذه السيدة كان شديد الانحناء كقوس شُدّ إلى أقصاه تمهيدًا لانطلاق السهم؛ إنّها والدة مير قاسم. ندخل الدار حيث حضر الجميع، إخوةُ وأخواتُ مير قاسم. نجلس ونتناول الضيافة. نتحدّث أوّلًا عن الرحلة الطويلة والتعب، ثم تعود بوصلة الحديث إليه. يبدأ أخوه الأكبر مير عباس الكلام:

لطالما امتزج اسم سيستان بالبطولة والشجاعة التي اتصف بها أجدادنا إضافة إلى التديّن. عندما أمر بعض خلفاء الأمويّين سبّ الإمام علي عليه السلام لم يرضخ السيستانيّون للأمر. كما جاء في بحار الأنوار أنّ الطائفتين الوحيدتين اللتين لم ترتدّا عن ولاية الإمام علي عليه السلام، هما أهل المدينة وأهل سيستان. ورغم كل التهديد والوعيد الذي مارسه الخلفاء حتى وصل بهم الأمر إلى حلق رؤوس النساء، لم يفلحوا بجعلهم يسيئون الكلام عن الإمام عليه السلام.

في ذلك الزمن، هاجر 7 إخوة وابن عمّ لهم من الحجاز إلى إيران وانتشروا فيها. بقي واحد منهم في بلوتشستان، وعاش آخر في قائنات، وآخر في شيراز وواحد في يزد، وتوجّه اثنان إلى أفغانستان بينما جاء اثنان آخران إلى سيستان، وطائفتنا هي من نسل أحدهم. عندما جاء وكلاء النفوس إلى سيستان من أجل إصدار بطاقات الهوية للمرة

الأولى، كانـوا يدوّنون اسم العائلة التي يذكرهـا الشخص. على سبيل المثال أحدهم قال: «نحن من طائفة مير، ونعيش في ناحية بلدة ناروئي (شهـرك ناروئي)[1]. ومن هنا جاء اسم عائلة أحد فروع طائفتنا «مير شهركي»، وفرع آخر يُعرف باسم «مير» ونحن «مير حسيني».

مـا زال الناس هنا يحملون كثـيرًا من الذكريات عـن والدي الحاج «مـراد علي». لقـد تعرّض للاعتـداء خـلال انشغاله بأعمـال الزراعة الصيفيـة في المراعي، لكنه قاومهم ولم يخضع لهم، ويحكي كبار السنّ أنـه تعارك مع 7 أشخاص وحـده وهزمهم. لم يكن له ندّ في المنطقة من حيـث سرعة المنـاورة وقوة الساعدين. وقد أخبرنـا أنه قطع عهدًا على نفسه في مقام «أبو الفضل العباس»[2]، في حيّنا أن لا يسعى طوال حياته في طلب المال أو أن يظلم أحدًا. وهذا ما يوصينا به على الدوام، حتى أثناء رعـي الغنم عندما يدخل خروف ما أرضـ أحدهم، كان يذبح الخروف ويوزّعه أضحية. وما من شيء أهم عنده من عشق أهل البيت عليهم السلام.

كان «مير قاسم» آخر العنقود وطفل العائلة المدلّل. في الصف الأول الأساسـي لم يرغب بالذهاب إلى المدرسـة والابتعاد عن والدَيْنا. كنتُ حينها في الصف الخامس الأساسي وأخي مير حسن في الصف الرابع، كان علينـا أن نقطع مسافة 2 كلم تقريبًـا، المسافة الفاصلة بين قريتنا «صفدر مير بيك» والمدرسة. كنّا طوال العام الدراسي نتناوب على حمل «مـير قاسم» وحمل كتبه إلى المدرسة. أمـا في المدرسة، فكان إما يأتي إلى صفـي أو إلى صف «مير حسن»، وقد نسّقنا الأمر مع الناظر كي لا

1– شهرك: بلدة صغيرة.

2– المقام أو المنزل الذي عرف بمقام حيث نزل فيه أبو الفضل العباس.

يعترض أحدٌ على ذلك. كان هذا دأبنا طوال العام، وحدث في بعض الأحيان أن ساعدنا رفاقنا على ذلك. لكن في الصف الثاني الأساسي، أظهر تفوّقًا وأصبح التلميذ الأول في الصف وعُيّن عريفًا عليه. في المرحلة الثانوية، انتقلنا نحن الثلاثة إلى المدينة لمتابعة الدراسة، واستأجرنا منزلًا هناك لهذا الغرض. فكنا ندرس طوال تسعة أشهر ونساعد والدنا في أعمال الزراعة في الأشهر الثلاثة المتبقيّة.

عملتْ والدتي، منذ صغرنا، على زرع العقائد الدينية فينا؛ رغم أنها لم تكن تمتلك من العلوم شيئًا غير ما تلقّته في صفوف القرآن. كانت تعلّمنا الأدعية والأدعية اليومية. كما اهتمّ والدي بتعليمنا الصلاة في أوقاتها، وأدّت تلك التربية لأن ينادي الجميع «مير قاسم»؛ خلال دراستنا في «زابل»، بـ«شيخك» أي الشيخ الصغير، إذ إنّه كان يرتدي العباءة ويصلي وهو في تلك السنّ.

أصبح مير قاسم في عام 1979م عضوًا فخريًا في حرس الثورة، والتحق في عام 1981م بالجبهة، وأول عملية شارك بها، كانت عملية «بيت المقدس»، آنذاك كنت في الجبهة وعندما عدت أخبروني أنه قد شارك فيها، وبسبب ما شهدتُه من قساوة في الحرب من جهة، ومحبتي وتعلّقي بمير قاسم من جهة أخرى، تمنيت لو أنني ذهبت وعدت إلى الجبهة ألف مرة على أن يذهب هو.

بعد أخيه الأكبر مير عباس، تتصدّى أخته السيدة معصومة مير حسيني، للكلام:

عندما بلغتُ سنّ الدخول إلى المدرسة ولم يكن في قريتنا مدرسة ابتدائية، أرسلني والدي إلى قرية جزنيك. بقيت أسبوعًا كاملًا في

منـزل عمي وعـدتُ عصر الخميـس إلى منزلنا في قريـة «صفدر مير بيك». لقـد اشتقت للجميع خاصة لمير قاسم. ما إن اقتربت من المنزل حتـى ركض مـير قاسم نحـوي، وكان يصغـرني كثـيرًا، عانقته وفرح كثيرًا، ثم حملته على أكتافي ودخلنا المنزل معًا.

تركـت المدرسـة بعدهـا إذ لم أتحمّل البعـد عن العائلـة وعن مير قاسم بالخصوص. وبعد سنوات، ذهبت إلى الكتّاب لتعلّم القرآن، كان مـير قاسم في 12 من العمر حينها. قلـت لوالدي: «ما الفائدة من تعلم القراءة وأنا لا أجيد الكتابة؟!».

ما إن أنهيت كلامي حتى ألقى مير قاسم بيتين من الشعر:

اليراع في يدي حيران　　لا أدري ما أكتب

مشوّش الفكر مشتّت　　لا أدري ما أكتب

بهتُّ لسرعة بديهته في الردّ.

ربيـع ومنتصف العـام 1978م ومع أنّ قريتنا صغـيرة، إلا أنّ أهلها قـرّروا القيـام والتظاهر ضد الشـاه. سارت حشـود الناس ذلك اليوم يتقدّمهـم السيد محمـد الطباطبائي مردّدين الشعـارات. كان معظم المشاركين من الشباب، ومن بينهم إخوتي الذين كانوا أوّل المتظاهرين، وصـل المتظاهرون أمـام المخفر وأحرقـوا صورة الشـاه وزوجته «فرح ديبـا». جرى كل ذلك أمام أعين الجنـود الذين كادوا ينفجرون غيظًا، وهناك ذَبَحَ والدي خروفًا أضحية.

غـداة ذلك اليوم، عاود الناس التظاهـر، وجاء الجميع إلى منزلنا حيث طهونا الخروف للغداء، كانت لمير قاسم وأخي مير حسن مشاركة

واسعة في تلك الأيام، فقد اقترنت روحهما بالثورة.

فيما بعد، وشى أحدهم باسميهما إلى المخفر الذي ترصّد فرصةً للقبض عليهما والاقتصاص منهما، وهذا ما جعلنا نعيش القلق الدائم عليهما. لكنّ الله ردّ كيدهم واقتلع الطاغوت من جذوره وكفّ شرّهم عنّا.

بعد ذلك، تتولّى أخته الثانية، فاطمة مير حسيني الكلام وتُحدّثنا عن إحدى ذكرياتها:

كلّما قرأت آية «أشدّاء على الكفار» تذكّرت أخي مير قاسم. كان ودودًا مع الأصدقاء شديدًا على الأعداء. لم يكن يتحمّل أن ينال أحدٌ من الثورة أو من الشهداء بسوء.

استشهد صهرنا عام 1983م، وكان مير قاسم حينها في الجبهة. في مراسم العزاء، قال أحد الأقارب: «لم يذهبون إلى الجبهات؟ ها قد ذهب «بهمن» فاستشهد وأصبح تحت التراب!».

آلم هذا الكلام قلوبنا جميعًا وعضضتُ على الجرح إلى أن عاد مير قاسم من الجبهة. كنت ذاهبة إليه عندما ألفيته واقفًا عند الباب، دخلنا إلى الدار وحدّثته بما جرى في غيابه. ما إن أنهيت كلامي حتى نهض من مكانه غاضبًا وخرج. في تلك الليلة أرسل رسالةً إلى قائد الحرس الثوري شكا فيها ذلك الرجل. غداة ذلك اليوم، جاء والد ذلك الشخص إلى أخي مير قاسم وراح يرجوه ويبكي كي يتنازل عن شكواه. تشفّع والدي له فسحب مير قاسم شكواه. كان مير قاسم مصداقَ الكلام الإلهي الجميل.

مـرة ثانية، في ذكـرى انتصار الثـورة[1]، دعت الإذاعـة الناس إلى التكبـير مـن على سطوح المنـازل في الساعة التاسعة ليـلاً. بدأ هطول المطر الشديد أول الليل، وكأن السيول تنهمر من السماء. امتلأت أزقة قريتنـا بالميـاه واقتربت الساعة مـن التاسعة، فقال مـير قاسم: "هيا انهضوا لنصعد السطح".

لم يكـن بالإمـكان الخروج خطوة واحدة مـن الغرفة في ذلك المطر الغزيـر، لكن "مير قاسم" قال: "لنذهب إلى المسجد، فعلى الجميع أن يكبّروا الليلة".

استعـدّت والدتي للخروج قبل الجميع وكان المطر ينهمر من السماء كالسيـل، وصعُـب المشـي علـى والدتـي. دنا مـير قاسم منهـا وجلس القرفصاء أمامها ثم قال: "اركبي على ظهري لنذهب".

وقبل أن تقوم والدتي بأي ردّ فعل، حملها على ظهره وانطلق مسرعًا نحو المسجد.

تلـك الليلة، خرجـت أول تكبيرة مـن حنجرة مير قاسـم، ثم تلتها تكبيرات من باقي البيوت. كانت تلك ليلة انتصار الثورة.

يـدلي كلُّ واحـد منهـم بإحدى ذكرياتـه مع مير قاسـم وكأن الذكـرى عـادت بهم إلى ذلك الزمـن. يتّكئ الرجـل العجوز الذي شبّهته بـ«زال» على الجدار الطيني، يحدّق بشرود ذاهلًا عن كلّ ما حوله.

أيقنـتُ أنّ الذكرى حملته إلى تلـك الأيام، حين كان مير قاسم

1– 22 بهمن (11 شباط).

آخـر العنقـود المدلّل معهم وبينهـم. أنهضُ من مـكاني للمغادرة قائـلًا إنّي سأعـود ثانية. يصرّون عليّ للبقـاء لكنّني أقول إنّني بحاجة لأُخرج أوراقي وأقرأها من جديد.

أودّعهم وأنصرف. أصل بعد عدة خطوات إلى الطريق المعبّد وأركـب سيارة بيك أب في طريقها إلى مدينة زابل. كان العنوان بحوزتي فوجدته؛ غرفة صغيرة في مكان هادئ.

ما إن أصل حتى أخرج أوراقي، أريد أن أقرأ أكثر عن طفولته. تقع عيناي أول الأمر على كتابات سلطان علي أحمدي:

لقـد تعرّفت إليه قبل الحرب. كان يقطـع يوميًا مسافة 24 كلم على الدراجة النارية بين قرية جزنيك ومدينة زابل.

كنا زملاء دراسة. كان لدينا معلِّم يسألنا في كل حصة بضعة أسئلة حول الدرس، في أحد الأيام كنّا في باحة المدرسة، قال «مير حسيني»:

– لم أحفظ درسي ولست مستعدًا للإجابة.

– إذًا ماذا ستفعل اليوم؟

– صحيح أنني لم أدرس، لكنني لا أخاف من المعلم، وسأقول له إنّني غير مستعدٍّ للإجابة.

لم أبـالِ بكلامه في تلك الأيام، لكن عندما أصبح مير حسيني، مير حسيني الشهير، أدركت تمامًا معنى ومغزى كلامه.

أُخـرجُ الأوراق مـن الحقيبة وأرتّبهـا رزمًا رزمًـا في أرجاء الغرفـة ولا أتـرك لنفسي غير فسحة صغـيرة في الوسط. أرفع الورقة التالية وقد كُتب أعلاها، «مذكرات مهدي مير» وأقرأُ فيها:

جئنــا إلى مدينة زابـل للدراسة إذ لم يكن في قريتنا مدرسة ثانوية. كان في المدينــة صالتا سينما. وكنت أرتادهمــا مع أصدقائي، لكن مير قاســم ومير حسن لم يذهبا معنــا أبدًا. مهما حاولنا لم نفلح في حثّهما على مرافقتنا، ليس هذا فحسب، بل كانا ينهياننا عن ذلك.

في أحـد الأيام، رسمـت والأصدقاء خطة لجرّهمــا إلى السينما بأي حيلة. كنــا 15 شخصًا، عدنا إلى المنزل لاهثين وأخبرنا مير حسيني أنّ عراكًا حصل وتعرّضوا لرفاقنا بالضرب. بالتأكيد ثارت ثائرة مير قاسم الغيــور. وضع عصا تحت قميصه «البلوتشي» وانطلق معنا نحو السينما. كنا طوال الطريق نقول: «عديمو المروءة كانوا أكثر منّا عددًا و و..»

وصلنــا ودخلنا إلى قاعة الانتظــار في السينما، كدنا نرقص فرحًا. سألنا مير قاسم:

- أين هم؟

- لندخل.

ارتاب من الأمر فألححنا عليه:

- لندخل، فالجميع في الصالة.

قال لنا وهو يمسك بالعصا من فوق قميصه بإحكام:

- أخرجوهم لنتعارك هنا!

أصررنــا عليه ثانية لندخل، لكنّه رفض وخرج من السينما فتبعناه نجرّ أذيال الخيبة وراءنا.

هــذا التعطشــ لمعرفة المزيد ينسيني تعــب الطريق. أجلسُ

وسـط الغرفـة وحيدًا في مقابـل فتوّة هذا الرجـل السيستاني، وأشرع بقراءة مذكرات غلام علي صاحبي:

كنت أعمل في المطحنة وأتأمل باهتمام القمح الذي تحوّل إلى طحين تحت رحى مطحنة الزمن. تلك كانت الحياة!

صباح ذلك اليوم، حاصروا المطحنة فجأة، وانتشرت قوات الحرس الثوري في الأرجاء. تقدم أحدهم منّا وقال: المطحنة مصادرة.

لم نعـرف سبب تلـك التصرفات. وقفنا حيارى لا نـدري ما الأمر. لجأ كلّ منا إلى زاوية طلبًا للأمان. تقدّم هو وقد عرفته فيما بعد؛ كان مـير حسيني. عندما رأى خوفنا، عانقنا، فذهـب عنا الفزع. نظر إلى وجوهنـا وابتسم محـاولًا زرع الابتسامة عليها أيضًا، ثـم أخرج صورًا للإمـام وألصقهـا على صدورنا وقـال: «لا تنزعجوا! لقـد جاء الإمام ليحرّرنا من نيران العبودية، تابعوا أعمالكم». كانت تلك بداية معرفتي بذلك الرجل العظيم والحليم.

يحلّ الظلام، وأنـا لا أزال أنقّب في تلك الأوراق وأتفحّصها، يأخـذ منـي التعـب كل مأخـذ، فأتمـدّد علـى الأرض حيـث أنا. أحـاول تنظيـم برنامج عملي؛ لكنّ ذهني يعجـز عن ذلك. تخطر هـذه الفكرة على بـالي وأنا بين الحلم واليقظـة، وهي أن أحقّق في الغـد عن ذهابه للمـرة الأولى إلى الجبهـة. وأستسلم بعدها لسبات عميق.

الفصل الثالث

مع أننا في منتصف فصل الربيع، إلا أنّ الصيف حلّ باكرًا على سيستان، فكان الطقس حارًّا مشبعًا بالرطوبة. قالوا: «لم يهبّ النسيم اليوم، لكن ما إن يحدث ذلك حتى تتحسّن حال الطقس».

كنتُ قد قرأت في الكتب أنّ الرياح التي تهبّ على سيستان تستمرّ 120 يومًا، فَرُحْتُ أنتظرها. عندما سألت عن موعدها قالوا إنها تصل بعد 15 يومًا تقريبًا.

أقرّر مواعدتها وأشغل نفسي بقراءة المذكّرات هربًا من الملل.

بدايةً، أقرأُ مذكرات «أمير عباس صحرا نشين»:

كنّا في ثكنة «دو كوهه»، كان الطقس باردًا، لذا أشعلنا المدفأة النفطية وسط الغرفة، وكان أهالي «زنكي» قد أرسلوا لنا الفستق النيء، فوضعناه في وعاء معدني لتحميصه على المدفأة.

سلبني ذلك الفستق الحارّ لبّي، فرحت أتناوله بنهم من دون انتباه مني أنه حصتنا نحن الثلاثة. فجأة دنا مير حسيني مني، حمل الملعقة التي كنا نحرك بها الفستق ووضعها على يدي فقفزت من مكاني، لقد كانت حارة جدًّا فسألته بحدّة:

– ما الذي فعلته يا أخ مير حسيني؟

أجابني بهدوء كأنّه يحاول تهدئتي:

- انظـر، هكذا هي الذنوب التـي يرتكبها الإنســان في هذه الدنيا، يقـوم بها بجهالــة وغفلــة وشيئًا فشيئًــا تتراكم لتصبــح جبلًا، تجلب الجحيم للإنسان. على الإنسان أن ينتبه لأعماله وسلوكه الدنيوي.

كلامه هذا بقي حلقة في أذني ودرسًا لن أنساه ما حييت.

مرة أخرى، كنت في معسكر «حميد الثائر» للتدريب، والطقس الحار قـد أنهك قوانا. تقـرّر أن يلقي «مير حسيني» كلمــة فينا، لكنه لم يكن قـد وصل بعد. نال العطشـ منّا؛ لكنّنا انتظرنا وصولــه وانتهاء كلمته. جــاء بجسمــه النحيف، قال بسم الله، وبدأ الـكلام. حدّثنا عن الإمام الحســين، عن الصــبر والتحمّل ظهيرة اليوم العاشــر. وقال إنّه علينا، حبًّا بالإمام الحسين عليه السلام، تحمّل الحرّ، وهذا نوعٌ من التدريب.

تحدّث مطوّلًا، لم نشعر بمرور الوقت، ثم ختم كلامه بالصلاة على محمد وآل محمد. حينها تعجّبنا من تحمّل البقاء مدة ساعتين كاملتين تحت أشعة الشمس الحارقة نستمع لكلامه من دون أن نشعر بمرور الوقت.

لا أدري، هل أشبّه سيف «مالك الأشتر» بلسان مير حسيني، أم أشبّه لسان مير حسيني بسيف مالك الأشتر؟ فكلاهما قاطعان في سبيل الحقّ. أقلّب الأوراق وأجد مذكرات أخرى لمهدي مير. يبدو من خــلال مذكراته أنّه شقــيّ ومشاكس، أدركــت ذلك من قراءتي لمذكراتــه الأولى حول الخدعة التي افتعلها لجرّ مير حسيني إلى السينما، لقد راقني ذلك. في القصة الثانية أقرأ التالي:

قبيــل عمليات والفجر التمهيدية، أرسلوا مجموعة من الموظفين إلى

الجبهـة، وكنت أنا واحـدًا منهم. لم يكن يجيـد أفرادها القتال وحمل السلاح، يمكن إدراك ذلك من خلال النظرة الأولى. جاء مير حسيني فتعانقنـا وتذكّرنـا زابل وما جرى لنا فيها. مـا إن رأى أفراد المجموعة ذلك، حتى أخذوني الواحد تلو الآخر جانبًا وبدأوا يرجونني:

– بالله عليك أخبره أننا لسنا أهلًا للحرب.

– اطلب منه أن يرسلنا إلى الخطوط الخلفية، إلى الأهواز مثلًا.

كان كلّ واحـد منهـم يطلب شيئًا. نظرت إلى مـير حسيني مبتسمًا وقلت:

– أقـول لك وبكلّ صراحة، هؤلاء ليسـوا أهلًا للحرب والقتال، وهم يرجونني كي أطلب منك أن ترسلهم إلى الخطوط الخلفية.

ذهـب إليهم ضاحكًا ممازحًا وأرسلهـم جميعًا إلى وحدات الإسناد في الخطوط الخلفية. ثم قال لي:

– هذه الحرب حربُ الشعب، وسيشارك فيها كل من يتطوّع لها. ولن نجبر أحدًا على ذلك.

مـرّت سنوات على ذلك اليـوم، وجميع أولئـك الأشخاص أصبحوا مسؤولـين في أماكن مختلفـة، وكلّما التقينا تحدّثنـا عن ذكريات ذلك اليوم. لم يكن مير حسيني كغيره من البشر!

يأتـي مـن أنتظرهـم، «سلطـان علـي مـير» أحد أقربـاء مير حسينـي الذي رافقه حتى استشهاده، مير عباس وموسى أخوا مـير قاسم. كان موسـى أبيض الشعر، وكمـا أخبرني فهو يكبر مـير قاسم بحـوالي 20 عامًـا. نركب سيـارة تويوتـا «بيك آب»

بمقطورتين للركاب، ما يدهشني أنّ جميع السيارات هنا من نوع «بيك آب». أخبرهم أنني في صدد التحقيق والبحث عن أولى العمليات التي شارك فيها مير قاسم، وجميعهم يؤكّدون أنّ عمليات بدر لم تكن كغيرها، ولا يمكن نسيان ذكرياتها، يقولون أيضًا إنّه يمكنني التحدّث إلى شخصين شاركا مير قاسم في تلك العمليات، ونتّفق أن نحدّد موعدًا ليوم غد. ثم يشرع موسى بالكلام أثناء الطريق:

إلتحق مير قاسم بالجبهة بعد أن خضع لدورة تدريبية، وكانت عمليات «بيت المقدس» أولى العمليات التي شارك فيها، والتي استشهد فيها صديقه المقرّب «عوض كرك». حزن مير قاسم كثيرًا لاستشهاده وكان يقول: «لقد اشترى عوض كرك لطفله لعبة وكانت بحوزته عندما استشهد. انفجرت قذيفة هاون بعيدًا عنه، لكن شظية باردة أصابته وعلقت بين أضلاعه. لقد أصبحتُ وحيدًا بعده».

وكما يقول أيضًا: «بعد شهادة «عوض كرك»، أصبحت حقيبة ملابسي صاحبي القريب[1]. لم أكن أعرف أحدًا وأضحت حقيبتي جزءًا من ذكرياتي، ذكريات زابل، قرية صفدر مير بيك، جزنيك وغيرها. حتى إنّني طلبت من مسؤول التموين والدعم أن يحملها إليّ أينما تموضعنا بعد العمليات».

في تلك الأيام، كان مير قاسم ابن الثامنة عشرة من العمر المقاتل في الجبهات.

التقيت بعد ذلك بمير قاسم مرّات عدة في الجبهات، كنت في

1– أي فقدت الاصحاب.

الجيش الإيراني وهو في الحرس الثوري.

بعد انتهاء عمليات «بيت المقدس». أظهر العديد من جنود الجيش استياءهم من استمرار الحرب خاصة بعد الدعايات التي روّج لها صدّام من أنه على استعداد للسلام وما شابه من هذا الكلام. حينها، كان مير قاسم يزورني كثيرًا ويقول لي في كل زيارة إنّنا ملزمون بالدفاع، وإنّ شرفنا على المحك في هذه الحرب. أذكر أنّنا كنّا قبيل عمليات رمضان مستقرّين في كوشك الأهواز عندما جاء مير قاسم لوداعي وقد أودع وصيّته عندي. لقد أثارت إرادته الصلبة دهشة جميع زملائي. كان ذلك اليوم أصعب وأقسى أيام الحرب.

ذهب مير قاسم بإرادة وعزم ثابتين، ودّعني وكأنّ لقاءنا هذا هو الأخير. انتابني شعور عجيب، حينها بكيت أمام زملائي حتى ارتويت، خاصة بعدما قرأت وصيّته.

«سلطان علي» صامت، لكن ما إن يصل الكلام إلى هذه النقطة، حتى ينتبه كأنما تذكّر شيئًا ويقول:

كانت عمليات «رمضان» والقوات في حال انسحاب إلى الخطوط الخلفية، ولم يكن خط الدفاع قد ثُبّت بعد. وقف مير حسيني قبالة القوات المنسحبة وصرخ عاليًا: «إلى أين تذهبون؟ لمَ تُخلون الخط؟ أُقسم إنّ يوم المعاد حقّ، وإنّ يوم الجزاء حقّ، لمَ تولّون الأدبار؟».

لم يستطع ردعهم عن الانسحاب، وعندما أدرك أن لا فائدة من ذلك، نظر إليّ وقال: «هؤلاء التعبويون إن قرروا الانسحاب فلا أحد يستطيع ردعهم، هيا لنذهب».

لم نستطع البقاء، أعطاني مير حسيني جهاز اللاسلكي وحمل بعضًا مـن قطع السلاح على كتفيه وقال: خسارة أن نترك هذه الأسلحة هنا، لنأخذها معنا إلى الخطوط الخلفية».

انطلقنـا وسرنا مع القوات بمحـاذاة الساتر الترابـي. رأينا خلال سيرنـا سيارة جيب 106 وسط السهل ولا يوجد أحد بالقرب منها. قال مـير حسينـي: «خسارة أن يبقـى هذا هنا». ذهبنا نحـو الجيب، كانت قذائف الدبابات تتساقط في الأنحاء. تفقّد مير حسيني الجيب، وجده سالمًـا، ركبناه، لكن لا أحد منّا يجيد القيادة. أدار مير حسيني المحرّك وقال: «سأقوده كيفما كان، سأحرّك عصا السرعة ولا بدّ أن ينطلق».

حـرّك عصا السرعة فتحرّك الجيب مهتزًّا بشدّة. يا لها من قيادة! كان ممسـكًا بالمقـود ويسير ببـطء، لكنه لم يدع حفـرةً إلا ونزل فيها، كأنه نذر أن ينزل فيها كلّها!

وصلنا إلى الخط الخلفي شبهَ أمواتٍ. التقينا بمجموعة من عناصر المدرّعات ومهمتهم الرمي على دبابات الأعداء. أعطاهم «مير حسيني» الجيب ليستخدموه في مهمتهم ثم قال لي: «وا أسفاه لو لم نحضره معنا لوقع بأيدي العراقيين!».

إنـه فصل الحصـاد، الرجـال والنساء ينتشـرون في مزارع القمح في حركة دؤوبة.

شارك مير عباس[1] مرات عدّة في جبهات القتال. ومع أنه كان أكـبر سنًّا من مير قاسم؛ إلا أنـه كان يأتمر بأقواله. أتذكر كلامه

1– أخو مير قاسم.

عن المـرة الأولى لذهاب مـير قاسم إلى الجبهـة، وكيف أنه بكى وتمنّى لو ذهب بدلًا عنه، قال:

ذهبـت إلى الجبهة مع بدء عمليـات «والفجر[1]»، ووصلت إلى هنـاك في الليلـة الثانيـة للعمليات. سألت عن مير قاسـم فقالوا إنّه ذهب إلى منطقـة المواجهات، وجُـرح في الليلـة الأولى من بـدء العمليات، وبقي هنـاك رغم أنّ يده معلّقة في عنقه.

يقـول محمد حسين بودينه: «شـارك مير قاسم في العمليات بعنوان قائـد كتيبة الاقتحـام الخاصة، وعلـى الرغم من انكشـاف أمر معبر القوات والاستعداد المسبـق للعراقيّين للتصدي لنا، إلا أنه دخل بقواته إلى المعبر وسار آخر الرتل. عندما أصبحوا داخل المعبر بالكامل، سلّط العراقيون عليهم الأضواء وبدأوا يرمونهم بالرصاص وقذائف «الآر بي جي»، فاضطر المقاتلون للانبطاح أرضًا. قال «محب علي فارسي» أحد قادة سرايا مير حسيني: «الإخوة يرفضون التقدم».

– حسنًا، بما أنهم لا يريدون ذلك فسأذهب وحدي.

قـال بصـوت عال: «من يريـد منكم التقـدّم فليتبعنـي!». ثم أطلق لساقيـه العنـان. سلّـط العراقيون عليـه أضـواء المصابيـح الكاشفة وأمطـروه بالرصاص. وصل مير حسيني إلى ساتـر العراقيّين الترابي ورمى قنبلة يدوية داخل المتراس الأمامي، ثم تبعه باقي الإخوة، وصلوا إلى الساتر الترابي وسيطروا عليه».

هناك، مع اقتراب الصباح، جاء الأمر بالانسحاب، فقد انفضح أمر المعبر وأصبح تحت مرمى النيران العراقية. وقف مير قاسم عند حافة المعـبر مشرفًا على انسحـاب قواته، ثم تبعهـم إلى الخطوط الخلفية،

وألقــى فيهــم كلمــة أجــرت الدموع مــن مآقيهــم، فراحــوا يصرخون مطالبين بالعودة إلى الخطوط الأمامية ومتابعة المعركة.

يحدّثنــا مــير عباس عــن معنويــات مــير قاسم وعمّــا يقوله الآخرون فيه:

قبــل ليلتــين أو ثلاث مــن بدء عمليــات «والفجــر 8»، دخلنا منطقة العمليات برفقة 4 أو 5 عناصر من الاستطلاع والمعلومات. لم يكونوا قد وزّعوا القوات بعد وقالوا: «ابقوا أنتم إلى جانب القائد».

كنــتُ قد خضعــت لــدورات تدريبيّــة أكثر مــن غــيري فأبقوني مع «بودينه»[1] قائد اللواء. اعترضت عليهم لأنهم لم يرسلوني مع مير قاسم فقالــوا لي: « لم نرسلك كــي لا يعطيك الأوامر خــلال العمليات، كما لا يصحّ إرسال أخوين إلى المواجهات، فإن حدث شيء لا سمح اللّه..»

انطلقــتُ مع «بودينــه» بينما تولّى مير قاسم توجيــه الغواصين عند نهر « أروند»[2]. وصلنا إلى ضفة نهر أروند وبدأت العمليات. انطلق مير قاسم مع أول سرية لغوّاصي الاقتحام نحو الضفة الأخرى.

تقرّر صباح اليوم التالي أن تدخل كتيبة الاشتباك ميدان العمليات. قالــوا إنّ القوارب ستعلق في الأوحال، انزعج قاسم من ذرائعهم وأصرّ على انطلاق الكتيبة ورافقتهم.

أخبرنا عامل الإشارة[3]: "كنّا خائفين كثيرًا، لكن مير قاسم ربط

1- Podineh

2- arvand Rood، وسُمّي في الجانب العراقي شطّ العرب.

3- عامل الاتصالات اللاسلكية.

قنبلتين وانطلق إلى الأمام، بينما انتشر العراقيون في مزارع النخيل الممتدة على الجانبين. توقّعنا أن يتساقط الرصاص علينا في أي لحظة، لكن رغم ذلك لم يهدأ مير قاسم أو يستكن، وبقي يتنقّل هنا وهناك حتى الصباح".

في الصباح، سمعت صوت مير قاسم يقول عبر جهاز اللاسلكي: "الحمد لله، لقد حقّقنا جميع أهدافنا وهذا ما رفع من معنوياتنا". رغم كلامه هذا، إلا أنّ بودينه راح يضحك ويقول: "هكذا هو مير حسيني دائمًا، حتى في حال الانسحاب يتكلم بطريقة لا يمكنك أن تميّز معها حقيقة الوضع فلا تعرف، ما إذا كانت القوات تقتحم أو تفرّ. الله أعلم ما الذي يجري هناك الآن! لربما كانت قواتنا تنسحب ومير حسيني يتحدّث بهذه الطريقة!". كان بودينه يضحك ويتحدث عن الروح المعنوية لمير قاسم، وعن شجاعته وكيف أنه يكون في رأس الحربة لأي هجوم واقتحام، كما تحدث عن مدى شراسته في الحرب.

نذهب للقاء حميد شفيعي من أبناء كرمان.. كان هذا اللقاء الأول الذي يجمعنا. ثم نحدّد في اليوم التالي موعدًا آخر للّقاء. شارك حميد شفيعي في عمليات بدر مع مير حسيني ويحدثنا عن معنوياته ومدى محبته وتقديره له، كما تقرّر أن يحدّثنا عن تفاصيل ذكرياته في اليوم التالي، لكنه خلال هذا اللقاء القصير أيضًا لم يبخل علينا بذكر شذرات منها:

قبل بدء الهجوم لعمليات «والفجر 2»، التقيت مير حسيني حيث أمسك بيدي وقال: «أريد أن أحدّثك في أمر».

أدركتُ أنه علم بما يدور في ذهني؛ هذا دأبه؛ كان رأيي أنّه يجب

اقتحــام خط الأعداء والسيطـرة عليه بسرعة؛ وإلا فــإنّ قواتنا ستُباد عــن بكرة أبيها! وقد انصــبّ تفكيري على السبيل لتحقيق ذلك وفرص النجاح. ابتسم مير حسيني وقال:

– عندما تصل إلى خطوط الأعداء، ورغم كل الصعاب واليأس، فإنّ دقائق من الصمود والمقاومة ستغيّر جميع المعادلات وتعود عليك بالنصر.

دنــت ليلــة العمليــات. انطلقنا وانبطحنــا خلف حقل ألغــام العدو، أعطيــتُ الأوامر بإطلاق النار وبدء المعارك. كان علينا عبور جدار من الأسلاك الشائكة يرتفع حوالي 3 أمتار ومن ثم عبور القناة. تلك كانت أصعــب لحظات حياتي. قال عناصر الاستطلاع المرافقون لنا: «حاولوا أن تعبروا الأسلاك الشائكة أوّلًا».

حينهــا أدركت أنّ مير قاسم مطّلع علــى أوضاع المنطقة بشكل وافٍ ويعلــم شــدة الضغوط التي سأتعرّض لها والتي مــن الممكن أن تُفقدني الأمل فأنسحب، في تلك اللحظات تذكّرت كلامه. لقد امتدّ أمامنا حقل ألغام. أصبت بشظية في قدمي وداس «ماهاني» على لغم فبُترت ساقه[1]، وقد كَمن العراقيون لنا خلف الأسلاك الشائكة وبدأوا باصطياد الإخوة الواحد تلو الآخر.

صمدنــا وقاومنــا إلى أن وصل عددٌ من الإخوة، مــن بينهم الشهيد مرتضــوي، إلى الأسلاك الشائكة وهاجمــوا مواقع العراقيين من أعلى القنــاة فتمكّنا بعــد ساعة من اقتحــام الخط والسيطــرة عليه. هناك اتضح لي سرّ كلام مير حسيني!

1– استشهد فيما بعد.

مـرة أخرى، تقرّر قيامنـا بالهجوم على جسر «غزيلـه» المؤدي إلى العمارة. كان المسير طويلًا، حوالي 45 كلم للوصول إلى الجسر، وتوجّب علينـا أن نقطع مسافة 80 كلم ذهابًـا وإيابًا سيرًا على الأقدام. وصلنا إلى طريق مسدود، فذهبتُ أنا وبهرام سعيدي والشهيد مصطفوي إلى مير حسيني. قال مصطفوي:

– حتى لو وصلنا إلى هناك فإننا بحاجة إلى الإسناد المدفعي.

أجاب مير حسيني: « ليس متوافرًا».

نظرنـا إليه بدهشـة، فبدأ الـكلام. في البداية، تلا آيـة من الذكر الحكيـم، ثم قال إننـا لا نملك أي تجهيزات، وليس لدينـا سوى توكّلنا علـى الله وأداء تكليفنـا، لكـن القعود وعـدم القيام بشيء، لـن يؤمّن السلاح والدبابات أو المدافع و..

لقـد قال أشياء كثيرة ذلك اليوم حتـى أنسانا كل حججنا السابقة. كان تكليفنا القيام بالعمليات، لقد غرست روحية مير حسيني ومعنوياته البطولة والشجاعة في قلوب جميع العناصر.

نودّعه ونكمـل طريقنا. ذكّرني كلامه بمذكـرات «علي نجيب زاده» التي قرأتها سابقًا:

على المرتفعات المشرفة على مدينة «بنجوين» التقيته فتبادلنا التحية والسـلام، ثـم سألني عـن عباس حسينـي، فأخبرته أنّـه في المقدّمة، وانطلقنـا معًا إليه. كنا 4 أشخاص وقـد حُرّرت المنطقة حديثًا وما زال العـدو يصب نيرانه عليها، مـا اضطرّنا للسير منحني الظهور، إلّا مير حسينـي سار من دون انحنـاء، وفي غمضة عين أزاح رأسه فسمعنا من

خلفـه صوت «يا حسين». أدركنا أنه في اللحظـة التي أزاح مير حسيني رأســه، تجاوزته رصاصة وأصابت الواقف خلفه. فكّرت في لحظة: «هل يا تُرى رأى مير حسيني الرصاصة قادمة نحوه فتنحّى جانبًا؟!».

شغـل هذا الموضوع بالي مدة من الزمن، وبعد 3 سنوات في عمليات «والفجر 8»، رأيته أثناء هجوم الأعداء يقف على الساتر الترابي يراقب تحركاتهم بدم بارد. قلقت عليه كثيرًا فقلت معترضًا:

- يا حاج! هل تنوي الانتحار؟ هيا انزل!

التفت نحوي ورمقني بنظراته ثم قال:

- لا تخف لن أُصاب بأذى.

عندما أصررت عليه أن ينزل قال:

- أنا أعرف متى وأين سأستشهد، لذا يجب أن لا أحني رأسي.

لم أقـل شيئًا، لكن كلامه بقـي راسخًا في ذهني: «قيام القائد بعمل مكروه مساوٍ لقيام التعبوي بعمل حرام!». كان ينفّذ ما يقوله!

نذهب للقاء «محمد كار بخش» بالقرب من سدّ سيستان حيث تنتشـر المـزارع التي تُروى من مياه نهـر «هيرمند». في الجولة الأولى، نشاهـد مساحات شاسعة مـن الأراضي الخضراء، وقد بُني السدّ لتجميع مياه النهر وجرّها إلى تلك الأراضي.

يبدأ محمد كار بخش المبتسم دومًا الحديث عن مير حسيني:

كانـت المرة الأولى التي أشارك فيها في العمليات، ولم أمتلك تجربة كافيـة عن المعارك، كمـا لم أكن أفقه شيئًا عن عمل الكتائب أو الجبهة

والحرب. كان «علي بينا»[1] قائد الكتيبة ومير حسيني مسؤول المحور.

عند الساعة الرابعة، انطلقنا نحو المواقع العراقية، وما إن اقتربنا حتى تساقط رصاصهم علينا من كل حدب وصوب. كنّا قريبين جدًّا منهم، وهم يطلقون النار يمينًا وشمالًا من خلف تلّ صغير. فلم نستطع التقدّم خطوة واحدة. جلسنا منتظرين الأوامر منبطحين أرضًا بسبب غزارة الرصاص.

فجأة وقف أحدهم، عرفته من تحت نور القنابل المضيئة؛ إنه مير حسيني حاملًا بيده مكبّر الصوت، وبدأ الكلام وبثّ الحماسة. كانت أنفاسه أشدّ حرارة من الرصاص المتساقط فوق رؤوسنا، وكلماته أسرع من رشقات الرشاش:

– أيها الإخوة! إنها كربلاء، وعندما أنادي «يا حسين» انهضوا واتبعوني.

غلت الدماء في عروقنا، وما إن صدع بنداء «يا حسين» حتى انطلقنا في أثره غير عابئين بالرصاص المنهمر من حولنا كالمطر؛ فمير حسيني حامل اللواء؛ وحتى لو اعترض سبيلنا سبعة عوائق كتلك التي اعترضت رستم[2] لما عبئنا بها ولعبرناها. قلت لكم، لقد كان مير حسيني حامل لوائنا. تقدّمنا واقتحمنا خط الأعداء وسيطرنا عليه.

بعد تلك المعركة، لزمتُ الجبهة وحاولت نقل تجربتي التي اكتسبتها للآخرين. كنا قبيل العمليات ننظّم صفوفًا متنوّعة للمقاتلين حتى

1– انتقل إلى جوار ربّه في عمليات كربلاء 5.

2– أحد أبطال الشاهنامة الذي انطلق لتحرير ملك إيران الأسير عند الشيطان الأبيض، وقد اعترض سبيله 7 عوائق، كعبور صحراء قاحلة، العراك مع التنين وغيرها.

يتمتّعوا بالجهوزية المطلوبة للعمليات، منها صفوف التدريب على السلاح. في ذلك اليوم، كنت أدرّبهم على سلاح الـ«آر بي جي» والمسافة المناسبة لإطلاق القذائف على الدبابات وما شابه.

قبيل انتهاء التدريب، جاء مير حسيني وجلس آخر الصف. عندما أنهيت كلامي قال:

– هل تأذن لي، أريد قول شيء.

– تفضل يا حاج.

– أخي «كار بخش»! لا تخافوا من الدبابات العراقية، عندما تصل إلى مرمى الآر بي جي، ارموها، لكن عندما تصل إلى الساتر الترابي لا تفعلوا.

اعتقد الإخوة أنه يمزح فضحكوا وقالوا:

– أخبرنا، في النهاية، هل علينا أن نرمي على الدبابة أم لا؟

قال مير حسيني:

– وماذا تستطيع الدبابة المسكينة أن تفعل أمام الساتر الترابي؟ فهي لا تستطيع القتال وإطلاق النار إلا في المناطق السهلية المنبسطة، وإلا فإنها تصبح عاجزة تمامًا عند السواتر الترابية، وفي اللحظة التي تدنو وتقترب ويزيد خوفكم منها، يزول خطرها وتستطيعون شدّها من أذنها ورميها في زاوية!

حتى ذلك الحين، كنت قد اكتسبت تجارب كثيرة في مواجهة الدبابات، لكن كان لكلام مير حسيني طعمٌ آخر! لم أنس نصيحته حتى نهاية الحرب، وقد أفادتني كثيرًا في مواجهة الدبابات.

مـن ذكرياتي الأخـرى، عندما ذهبت الفرقـة إلى الجبهة الغربية، وتموضعنـا في «كاميـاران». كانـت الفرقـة تعـجّ بالعناصـر والحركة الدؤوبـة، فقد جاء القائد العام للحرس الثوري الأخ «محسن رضائي» إلى معسكرنـا والجميع مشتاق لرؤيته. اجتمعنا أمام مبنى القيادة ولم يسمح لنا الحرّاس بالدخول. كنّا نسترق النظر من النافذة ونبحث عن طريق للدخول.

رحـل الإخوة الواقفـون أمام البـاب الواحد تلو الآخـر، ولم يبقَ في الخارج غيري مع عـدد من العناصر. في تلك الأثناء قالوا إنهم أرسلوا مـن ينادي مـير قاسم، فهو لم يكـن حاضرًا في الاجتمـاع، وما هي إلا دقائـق حتى أطلّ بلباس مغبرّ واتجـه نحو الباب ليدخل. انتظرنا ريثما يدخـل فنتمكّـن من رؤية من في داخل الغرفـة. عندما وصل إلى الباب وهمّ بالدخول، شدّه أحد الحرّاس من يده وقال:

- إلى أين؟

أجاب مير حسيني ببرودة أعصاب وهدوء: «أريد الدخول، لديّ عمل».

منعه الحارس وقال: «ارجع، فهناك اجتماع في الداخل».

لم يُجـب مـير حسيني بشـيء ولم يعترضـ أو يغضب، بـل رجع إلى الخلف ونظرنا إليه بدهشة. ما هي إلا بضع دقائق حتى خرج أحد قادة الفرقـة من الاجتماع ونظر إلى مير حسيني بتعجّب ثم تقدّم منه ودعاه باحترام للدخول. هنا انتبه الحارس لمقام مير حسيني واعتذر منه. لكن مير حسيني بادره بالقول: «لا داعي لذلك، فقد كنت تقوم بواجبك».

مـا أذكره عن مير حسيني هو اندفاعـه، وشجاعته، وذلك الصوت القرآني الرخيم.

أعـود ثانيةً إلى هذا العالم. فقـد كنت في سياحة في عالم آخر بعيـدًا كل البعـد عـن عالمي هذا. قرابـة الظهيرة، نـودّع مضيفنا وننطلق. في الطريق، أفكّر بالعشق الذي يكنّه أبناء سيستان لمير حسيني. هم يهيمون بأميرهم عشقًا، حتى إنّهم لا يطيقون رؤيته مقطّب الجبين، كما يروي «محمد علي غرغيتش»[1] في مذكراته:

كانــت عمليات «والفجر 4»، تقدّمت القــوات إلى الخطوط الأمامية إيذانًا ببدء العمليات، بينما كنت أنا في الخلف، فقد أعاقت آلام قدمي وظهري حركتي.

كان قائــد سيستــان قائـدَ الهجوم. كنــت أسمع صوتــه عبر جهاز اللاسلكــي ينشــر الحماسة بــين المقاتلــين، ويعطي الأوامــر بالهجوم، وإطــلاق النــار، فتسيل الدمــوع من عينــيّ. كان بطل مدينتنــا يقاتل. بعــد ساعة، تضاعفــت مقاومة العراقيين ولم تتمكّــن قواتنا من إنجاز مهمتهــا. عند الصبــاح، اتصل مــير حسيني بقائد الفرقــة وقال: «لا نستطيع إنجاز المهمة».

بكيتُ، وبدأتُ بالتوسّل والدعــاء له ولِجميع من يواجهون الرصاص وشظايا القذائف هناك، وكأنما أنا من أُهينَ ولا أدري لماذا!

رأيته بعد ساعة، لم أحتمل فارتميتُ في حضنه وبكيت. راح يواسيني ظنًّا أن بكائي لأجل استشهاد «بهمن خسروي» وغيره من الرفاق، قال:

– لا تحــزن فكلّنا سائــرون على هذا الــدرب، إن لم يكن اليوم ففي الغد. صحيح أنّ بهمن كان صديقك لكنّه أيضًا كان صهر عائلتنا.

1– گرگیج

لم أقل شيئًا وعدت للبكاء. لقد كان مير حسيني قائد ديارنا وهزيمته كانت هزيمة لسيستان وهامون ورستم و..

ألتقي «حميد سركزي» الذي شارك مع مير حسيني في عمليات بدر، ونحدّد موعدًا في اليوم التالي ليحدّثني عن عمليات بدر فيوافق. أسرّ لذلك وعندما أهمّ بالانطلاق يقول:

كنتُ «رسول» مير حسيني، وكنّا في جزيرة مجنون حيث قضينا أيامنا ولياليا تحت أزيز الرصاص وشظايا القذائف والقصف الجوي، لم نستكن ولم نهدأ. كانت حربًا من نوع آخر.

صباح يوم العمليات كانت الجرّافات والحفّارات ما زالت تعمل على بناء الساتر الترابي. كانت المنطقة منبسطة مسطّحة من دون أي عائق طبيعي أو غير طبيعي. كنت رسول مير حسيني إليهم وكان عليّ عبور منطقة لم يتم بناء أي ساتر ترابي فيها بعد. تلوت الشهادتين وانطلقت.

كان قصف الأعداء شديدًا، وكل شيء يحترق كأنهم يحرقون جزر مجنون. وصلتُ إلى نهاية الساتر الترابي وبدأت بالركض تحت النيران. كنت وحيدًا، حاولت أن أصل إلى هدفي بأسرع وقت. رحت أركض لا ألوي على شيء عندما ناداني صوت، التفتّ إلى مصدره فإذا به مير حسيني. جاء إليّ وقال:

- عد للخلف سأذهب أنا.

- لكن يا حاج..

لم يدعني أكمل كلامي وقال: «هيا ارجع بسرعة».

أذعنت لطلبه. فيما بعد سألته عن الأمر فلم يُجب، لكنني أعلم أنه

لم يشأ أن يرسلني تحت النيران كي لا أُصاب أو..

ننطلق إلى مقصدنا التالي «كلية الزراعة في زابل»، نريد التعرف إلى شخص لديه كثير من الذكريات مع مير حسيني، خاصة ذكريات الأيام الأخيرة حيث كان برفقته. في الطريق، نعرّج على «زاهد شيخي»، وهو أيضًا لديه كثير ليقوله عن مير حسيني في عمليات خيبر:

كان الأخ سعيدي، في عمليات خيبر، قائد كتيبة أمير المؤمنين عليه السلام. تعرّضت الكتيبة للقصف الكيميائي قبل وصولها إلى المحور، وقد تسلّم الشباب الخط برغم الجراح المتقيّحة على أجسادهم والسعال الذي أنهك صدورهم.

كانت نوبتي للحراسة، جلستُ في متراسي أنظر إلى الأمام، رأيت أحدهم يبتعدُ عن خط العراقيين ويتّجه نحونا واضعًا قماشة بيضاء على صدره. ما إن رأيته حتى نهضت من مكاني وصرخت: «عراقي عراقي». علت أصوات الإخوة، وخرج الجميع من مكامنهم إلى أعلى الساتر الترابي وازدحم الخط.

جهّزنا أسلحتنا على وضعية إطلاق النار، وصوّبنا نحو العراقي، منتظرين وصوله إلى مرمى نيراننا لنطلق عليه الرصاص، غافلين عن أنّ أحدهم يراقب ما يحدث، ولا أقصد غير مير حسيني طبعًا، في اللحظة التي أردنا فيها إطلاق النار صرخ عاليًا، إذ كان يقف أعلى الساتر، وقال بلهجته السيستانية: «لا يحق لأحد إطلاق النار».

كنت حينها في ريعان الشباب وكثير الحماسة. التفتنا ناحية الصوت فقال: «لينزل الجميع وليبقَ فقط عناصر استطلاع العمليات

علـى الساتر». أطعنـا الأوامر ونزلنا. ما إن نزلنـا حتى علا صوت من خلـف الساتر الترابي: «الدخيل الدخيل..». نظـرت إلى الأعلى فرأيت شخصًـا ترتعد فرائصه خوفًا قد اندفع نحـو مير حسيني، وارتمى في أحضانـه. حضنـه مير حسيني بأخويّة وهدّأ مـن روعه. عندها أدركنا أنّ هذا العراقي من أهالي النجف الأشرف، اصطحبه مير حسيني إلى دشمة القيادة.

بعد حـوالي 4 ساعات خرجوا مـن الدشمة. وعلمنـا أنه أُجبر على المشاركة في الحرب، وحسب ترجمة الإخوة لكلامه، قال:

– لقـد أحضروني مـن المدرسة لتلقّي التدريـب العسكري، وعندما أرادوا إرسـالي إلى الجبهـة قالت لي أمي وهي تنـوح وتبكي: «إياك أن تُقتل مع جيش الكفر»، وفي الخط الأمامي بقيت في متراسي كي لا أُقتل. الليلـة الماضية كنت في متراس الكمين، ونويت أن أبقى فيه وألجأ إليكم في الصباح، وعندما كنت أركض كنت أدعو الله أن لا تطلقوا النار عليّ، إذ لم أشأ أن أُقتل برصاصكم...

شـاء الله أن يكـون مير حسينـي حينها موجـودًا في الخط الأمامي لينقذ هـذا الأسير. غداة ذلك اليوم اندهشت لرؤيتي الأسير يجول في المـكان بزيّ التعبئة، عندما سألت الإخوة عن الأمر قالوا: «لقد أعطانا إحداثيات منصّات الصواريخ والمراكز العسكريّة وتقرّر قصفها».

فيمـا بعد، أصبـح الأسـير مقاتلًا في صفـوف «فيلق بـدر» المناوئ للنظام البعثي، ولا أدري هل علم باستشهاد من أنقذه وضمّه إلى صدره في ذلـك اليوم أم لا! أتمنّى أن لا يعلـم لأنني على يقين أنّ ذلك سيلهب أعماق أعماقه.

هنـاك، كان العراقيـون يصبّون حمـم نيرانهم علـى رؤوسنا يوميًّا وفي كل الأوقـات. لطالمـا أوصانا مـير حسيني بعدم الخـروج من دون الخوذات. لكن حدث أن رأيته في الساتر الترابي ذي الجدارين، يتوضّأ بمياه قارورته من دون خوذة على رأسه. فقلت له ممازحًا:

– يا حاج! إنّك لا تلتزم بالأوامر، أين خوذتك؟

نهض وقال: «لا تقلـق، عندما يريـد أن يأتي (القـدر) فسيعلمني بالأمر، والآن عد إلى متراسك بسرعة».

فيمـا بعد، أدركتُ أنّ مـير حسيني كان يرى أنّ الانحناء في مواجهة رصاص وشظايـا الأعداء على حـد الشرك بالله، ربمـا كان قول هذه الجملة سهلًا، لكن العمل به شيء آخر..

نصـل إلى كلية الزراعـة؛ كان في انتظارنا عند الباب معاون الكليـة السيـد «حسن بـور إسماعيل» وهو شـاب طويل القامة، يصطحبنـا إلى غرفتـه. نبـدأ بالحديـث، فقـال بـور إسماعيـل لسلطـان علي مير ضاحكًا: «أَتَذكُر لو لم أكن حينها لعلقت وسط العراقيين!».

وتتتالى الذكريات؛ كانا معًـا في اليوم الأخير، جُرح سلطان علي مير وبقي في أرض العراقيين، فطلب مير حسيني متطوّعًا لإحضاره، عندها رفع بور إسماعيل يده وتصدّى للمهمة و..

أقطع عليهما ذكرياتهما فينتبها إلى أنّنا جئنا لأمر آخر! نؤجّل الخوض في الذكريات إلى يوم آخر. أطلبُ من بور إسماعيل أن يحدّثني عن ذكرياته مع مير حسيني:

في تلك الأيام، كنت رامي «دوشكا»، سألتُ عن مهمتي قبل العمليات فأجاب مير حسيني: «ابقَ في الخلف وسأطلب منك التقدّم في الوقت المناسب».

ليلة العمليات، كنت أسمع صوته عبر جهاز اللاسلكي، وأسمع ما ينقله عنه الجرحى المنسحبون للخلف. كان يقول عبر اللاسلكي: «لقد وصلت إلى الأعداء، هيا تقدّموا!».

أدهشني كلامه! فبدل أن يعطي الأوامر بالتقدّم، كان يقول للآخرين أن يلحقوا به سريعًا إلى حيث هو! كما أخبرونا أنّ مير حسيني قد جُرح، لكنه تابع التقدّم ووصل قبل الجميع إلى تلّ الشجرة[1]، ثم نادى العناصر كي تذهب إليه. كنا حتى الصباح نسمع أخبار تقدّم مقاتلي الفرقة، ومع شروق الشمس سمعت صوته عبر جهاز اللاسلكي، يقول بعد السلام والتحيات:

– يا حسن! لقد أرسلت لك عدة «سوبر اتاندارد»، حمّل أولادك فيها واصعد إلينا.

مهما فكرت، لم أفهم ماذا يقصد بـ«سوبر اتاندارد». صادف أن قامت فرنسا في تلك الفترة بتأجير طائراتها «سوبر اتاندارد» للنظام العراقي ليقصف بها سفننا في الخليج الفارسي.

كنت أبحث عن مفهوم هذا الرمز في دفتر الملاحظات[2]، عندما رأيت رجلًا يقود 3 بغال قادمًا نحونا. ما إن وصل حتى سأل بصوت عال:

1– تك درختي.

2– دفتر الإشارة.

– هل بور إسماعيل هنا؟

– أجل أنا هو.

– يقـول لـك الحاج مـير حسينـي أن تُحمّـل الدوشكا علـى البغال وتصعد إليه.

تعجّبـتُ لقولـه، إذ لم يخطر ذلك على بالي أبـدًا. ساعدني الإخوة في تحميـل الدوشـكا على البغـال وانطلقنا إلى التلّ. هنـاك رأيت مير حسيني فذهبت إليه. ما إن رآني حتى ضحك. قلت له:

– يا حاج! اعتقدتُ أنّك أرسلتَ وسيلة مريحة لتقلّني، لكن..

ضحـك ثانية، لكن أثر ألم الجرح الذي أُصيب به الليلة الماضية بدا على وجهه.

التقيتـه ثانية في جزيرة مجنون، ومع أنّنا سيطرنا على الخطّ بشكل كامل، إلا أنّ العراقيّين كانوا يواصلون هجماتهم علينا، وقد فكّكوا الألغام والعوائق استعدادًا للهجوم المضاد. كان الظلام دامسًا تلك الليلة، وكلّنا متيقّظون لأدنى حركة تصدر من الأمام. كنت جالسًا في المتراس عندما سمعـت صوت دراجة نارية قادمـة، كان مير حسيني، لقد عرفتُ صوت دراجتـه لكثرة ذهابه ومجيئه عليها. ما إن وصل حتى نزل عن الدراجة وصـرخ فينـا: «استعدّوا يا رفاق، فالعدو يتقدّم نحونـا». ثم بدأ بإعطاء التعليمات وتوزيع القـوات. قبل أن يبدأ العدو هجومه طلب منّا تصويب كل مـا نملك من أسلحة باتجـاه خطّهم وفتح النار عليهـم. حينها ظنّ العدو أننا ننوي الهجوم عليهم فسدّوا الثغرة التي أحدثوها في ساترهم الترابي. بعدها طلب مير حسيني منا أن نكبّر بصوت واحد.

صعدنـا منتصـف الليل إلى أعلـى ساترنا الترابـي وأطلقنا العنان لحناجرنـا مكبّريـن بأعلى الأصوات. كنّا نكبّر والعـدو يقابلنا بإطلاق النار. بعدها ساد السكوت على طول الجبهة وتراجع العدو عن هجومه. بقي مير حسيني حتى الصباح يخ الخطّ متنقلًا فيه من مكان إلى آخر يتحـدّث إلى المقاتلين واحدًا تلو الآخـر. كان التعب قد أنهكني ودهمني النعاس عندما وصل إليّ فقال ضاحكًا:

- ما الأمر؟

- لا شيء يا حاج.

- هيا لنذهب إلى آخر الخط ونعُد.

منـذ ليالٍ لم يكـن قد أُغمض لي جفـن بعد. ذهبنا معًـا إلى نهاية الخـط، كان يتحدث ويمازح كل من يصل إليه ويشجّعه لرفع معنوياته. بقي على تلك الحال حتى الصباح، بينما أعياني التعب وخارت قواي.

مـا إن طلع الصباح حتـى استطلعنا حقيقة مـا كان سيجري الليلة الماضية. كان حقل الألغام قد فُكّك، ولو أن مير حسيني لم يكن موجودًا تلك الليلة...

يمضـي الوقـت، ننهض ونودّعـه ونغـادر. في الطريق يقول موسى:

يخ شتاء عـام 1985، كانت فرقة «زاهدان 88» متموضعة يخ منطقة سومار. جاء مير قاسم لزيارتي ليلًا. عند الصباح سألني:

- أي المناطق تحت تصرُّف فرقتك؟

- مرتفعات كيسكه، بند بير علي، كهنه ريك، مرتفع 402، كله قندي و..

- أي المناطق أكثر حساسية؟

- كله قندي.

- لنذهب إلى هناك.

انطلقنا، وكانت كتائب القدس في الجيش الإيراني قد تموضعت في المكان. عندما دخلنا الخندق في الخط الأمامي، سمعنا صوتَ «ثاقبٍ كهربائي»، لقد كانت القوات العراقية تحفر خندقًا. قال مير قاسم:

- القوات العراقية تقترب من خطّكم، فهل قمتم بشيء لصدّهم؟

أجبت بالنفي، فقال:

- هذه التلّة استراتيجيّة بالنسبة إلى القوات العراقية، ومن دونها لن يستطيعوا رؤية شيء، لذلك يسعون بكلّ ما أوتوا من قوة للسيطرة عليها..

في 2 شباط سيطر العراقيون على التلّة. عندما عدت في إجازة أخبرته عن الأمر فكان على علم وسألني: «والآن ما هي خطّتكم؟».

أخبرته أنّ اللواء يتدرّب ليستعيد السيطرة على التلّة، فقال: «إذا حاولتم ذلك عن طريق تركيز الهجوم على نقاط محدّدة فستفشلون لأنّ الجيش العراقي سيصبّ عليكم حمم نيرانه ويصدّكم عن ذلك!».

في 8 آذار من العام ذاته، أنجزت المرحلة الأولى لاستعادة التلّة، لكنّنا أجبرنا على الانسحاب تحت وطأة قصف القوات العراقية ونيرانها تمامًا كما توقّع مير قاسم.

يحين وقت الوداع. أعلم أنّي أثقلت عليهم كثيرًا اليوم.

يرحلـون وأعود أنا إلى غرفتي لأستريح حتى الغروب، ولأجول بـين الأوراق والمذكرات ثانيـة. الجميع تحدّث عنه، والمثير أنني صرت أستطيع أن أجسّم في ذهني صورة لقائد نحيل يقف وسط النار والدخان، يحمل مكبّر صوتٍ عاجي اللون ويصيح. الجميع يتحدث عن نداءاته الحماسية، عن صيحاته وقراءته القرآن.

أحمل كتابات محمد رضا حيدري وأقرأ:

كانـت عمليـات خيـبر، وكان العدو قـد أمطر الجزيـرة بنيرانه، فاستشهـد قائد الكتيبة الذي كان مستقرًّا في الخط. كُلّف مير حسيني مـن قِبَل قاسم سليماني بالذهاب إلى الجزيرة والاهتمام بأمر القوات والوضع فيها، إضافةً إلى التحقيق بأمر غمر المياه لبعضٍ من أجزائها.

رافقتـه وانطلقنـا. صرنا كمن ألقي به في جهنـم! كانت القذائف المتتاليـة تنفجر في الأنحاء لدرجة شعـرت أنني إذا ما أبعدت يدي عن جسمي قليـلاً فسوف تتعرّض لمئـات الرصاصـات والشظايا في دقيقة واحدة. ذُهلت عندما نظرت إليه، كان هادئًا من دون أي خوف أو وجل؛ وكأننا لسنا عالقين وسط النيران.

في تلك الليلة، انتقلنا مرات عدة ما بين جزيرتي مجنون الجنوبية والشمالية. وفي اليوم التـالي، كان مفعمًا بالنشاط والسعي والعمل ولم يسترح لحظة واحدة.

وفي اليـوم التـالي، 12 نيسـان 1984، قصفـت الطائـرات المعادية الجزيرة، وجُرح خلالها عدد كبير من المقاتلين من بينهم مير حسيني. لكنـه عوض أن يهتم بمداواة جروحه، صبّ اهتمامه على رفع معنويات المقاتلين كأنه لم يُجرح هو أيضًا. كان كعادته هادئًا وقورًا عند الشدائد.

مرة أخـرى، ذهبت للتدرّب على القتال البرمائي في وحدة البحرية المتموضعـة بالقرب من نهـر كارون. كنّا ننزل إلى الميـاه ليلًا، ونستعدّ للعمليات ونصارع أمواج «أروند رود» العاتية نهارًا.

في إحـدى الليـالي، أُعطيـت الأوامـر بالتأهّـب ووقفنـا في طابور. نظّمنـا أحد القادة في رتل وأعطى الأمر بالتحرّك. خرجنا من المعسكر وقطعنا مسافة طويلة إلى أن وصلنا إلى ضفة كارون. كانت مياه السيل قـد غمرت الضفة منذ بعض الوقت فأضحت موحلـة. أجلسنا القائد علـى الأرض وبدأ بالكلام. تحدّث عن العمليات وعن كيفية السير ليلًا وتطهير الضفة. في تلك الأثناء، رمى أحدهم، في آخر الرتل، حجرًا في الماء، فسأل القائد: من فعل هذا؟

لم يُجـب أحـد، فسأل ثانيـة؛ لكن مـن دون جدوى. عندهـا أمرنا بالنهوض والسـير نحو الأوحال على الضفة. اعترض بعضنا على ذلك وتجادلوا مع القائد، ثم تركوا الرتل وعادوا إلى المعسكر.

بعـد مدة جاء مير حسيني للقاء الإخـوة في المعسكر، فشكا بعضهم ذلك القائد لمير حسيني. فاستنكر عدم انصياعنا للأمر، وقال: عليكم الانصياع للأمر أثناء التدريب والاعتراض عليه فيما بعد.

دُهشنا كثيرًا لردّ فعله، لكن بعد أن شهِدْنا طاعته للقيادة أدركنا معنى تصرّفـه ذاك. لقد كان نموذجًا ومثالًا للمقاتل المطيع. تلك القيادة التي أعارت جماجمها للولاية وجاءت إلى ساحات الوغى والنزال عشقًا لمولاها.

مـا زلـت أذكر حادثـة أخرى جرت معـه. لا شـك أنّ صاحب الأمر الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف كان حاضرًا معنا طوال 8 سنوات من الحرب المفروضة، لكن أن يدّعـي أشخاص، وفي مدة زمنية محدّدة في الجبهة، أنهم رأوا إمام

الزمان، فهذا ما يثير الشكّ والريبة.

سألت مير حسيني عن هذا الموضوع؛ فكان يدحض هذه الادعاءات. لكنّه حدّثني عن إحدى ذكرياته قائلًا: «في عمليات «والفجر 3»، حوصر الشهيد «إمام دوست» وقواته 48 ساعة في الجبال القريبة من مهران. كان فصل الصيف، والحرّ الشديد قد أخذ منهم كل مأخذ. سمع إمام دوست صوتًا منتصف الليل يناديه بالاسم. ظنّ أنّ صاحب الصوت من الأعداء، وقد توسّل هذه الحيلة لتحقيق هدف ما. حمل بندقيته واتّجه ناحية الصوت، وكان كلّما سار نحوه ابتعد الصوت عنه، إلى أن اصطدم بعدد من مطرات المياه الباردة، فحملها وعاد إلى قواته. شربوا واستردّوا قوّتهم واستطاعوا كسر الحصار».

يؤمن مير حسيني بأنّ ما حصل هو من ألطاف الحجة عجل الله فرجه. كان يقول: «شخصٌ كالشهيد إمام دوست بما له من كمالات روحية، يستطيع أن يدرك عظمة هذه الألطاف؟!».

بعد ذلك، أمسك بمذكرات محمد كيخا. لم ألتقِ بأي من هؤلاء الأشخاص، لكنني أستطيع أن أجسّد صورة لهم في ذهني. جميعهم يتحدّثون عن مير حسيني حديث العشق والحسرة. حسرة فقدانه بالطبع. أي شخص هو مير حسيني؟ وماذا نثر هذا الشاب السيستاني على قلوبهم حتى سحرهم وأضحوا متيّمين به على هذا النحو؟:

في تلك الأيام قصفت الطائرات المعادية الجزيرة بالقنابل الكيميائية وأُصيب أحد الرفاق ليلًا بالحمّى. كانت الدموع تسيل من عينيه، كما أُصيب بالغثيان وراح يتلوّى من شدّة الألم. ذهبت إلى مير

حسينـــي وأخبرته بحال هذا التعبوي. عدنا إليه سريعًا، وما إن رآه مير حسينـــي حتى أمر سائقه بنقل التعبـــوي بسرعة إلى قسم الطوارئ، ثم التفت نحوي وسألني:

– ماذا عنك؟ هل أنت بخير؟

– لقـــد حقنت نفسي بالـــدواء المضـــادّ للكيماويات كمـــا استخدمت القطارة لهذا السبب.

في تلـــك الليلـــة، نُقلـــت إلى المستشفـــى ومن هنـــاك إلى طهران. في المستشفـــى، كان مـــير حسيني أول من التقيت به وقـــد وصل إليه قبلي. لقـــد أصيب بالقصف الكيميائي تلك الليلـــة؛ لكنه لم يخبر أحدًا كي لا يفقد المقاتلون معنوياتهم.

بقينـــا في المستشفى أسبوعًا كامـــلًا، عندما أردنا الخروج منه نويت الذهـــاب إلى زابل، فقال مـــير حسيني: «لا تخبر أحدًا بما جرى، سوف أعود إلى المنطقة لأنهم بحاجة ملحّة إليّ هناك».

ذهبت إلى زابل بينما عاد هو إلى جزيرة مجنون.

كان مـــير حسينـــي بعد كلّ عملية يـــدوّن أسماء الجرحـــى لزيارتهم وعيادتهـــم عنـــد عودتـــه إلى الديـــار. أذكر أننـــي جُرحـــت في عمليات «كربلاء 1» ونُقلـــت إلى مستشفى شيراز فجاء لعيادتي. لم أصدّق! لقد جـــاء برفقة عدد آخر من أبنـــاء سيستان، جلس بقربي، فشعرت كأنني أمتلك الدنيا.

تجاذبنا أطراف الأحاديـــث، وأوصاني بكيفية قضاء الوقت هنا، ثم طلب من أحدهم أن يحضر لي من سيارته مجموعة من الكتب والمصحف

الشريف، في نهاية الزيارة أوصاني بالاهتمام بباقي الجرحى.

بعـد مغادرته، جاء عدد من الجرحى وسألوني عنه ومن هو قائلين: «يا له من إنسان نادر الوجود». أخبرتهم أنّه معاون قائد فرقة ثار الله. لم يصدّقـوا بادئ الأمر، وسألوني من أكون أنا وما هو عملي في الفرقة حتى يأتي لعيادتي؟ أوضحت لهم الأمر، وأنّ هذا هو ديدنه، حيث يدوّن أسماء الجرحى بعد كلّ عملية ويأتي لزيارتهم.

هنـاك ذكرى أخرى لن تُمحى من بـالي أيضًا؛ حين كنّا عند غروب أحـد الأيـام في شلمتشة[1] نستطلع مواقع العدو تمهيـدًا للعمليات. كنت أجلـس معه على الساتـر الترابي المقابل لمواقع العـدو وأمامنا لجة من الأمـواج تتراقص عليها أشعة الشمـس، تحدثنا بأمور مختلفة في ذلك الغروب الكئيب. سألني مير حسيني:

- ماذا ترى في هذا الماء؟

- لا شيء، مجرد أمواج.

هـزّ رأسه قائـلًا: «لكنّني أرى فيـه دماء مقاتلين غـيّروا لونه، أرى تماوج الدماء في لججه».

لم يكـن قد حدثت أي معارك في تلـك المنطقة بعد، لكن بعد سنتين غيّرت الحرب وجهها. في عمليات «كربلاء 5»، سمعتُ نبأ استشهاد مير حسيني عند الصباح، نظرت إلى الماء المائج وكأنه بحر من الدماء.

أقـوم بإعـداد برنامـج الغـد، فقـد تقـرّر أن يأتـي شخصان ويتحدّثـا عن عمليات بـدر. أشعر بالنعاس وأنـا أنظم مذكرات

1- شلمچه بالفارسية وتلفظ SHALAMCHEH

عمليــة بدر ليوم آخــر، يسقط بينها صدفةً مذكـرات إسماعيلي، أسحبها وأقرأها:

جُرحــت في عمليــات خيبر، وبعــد أيام عدة خرجت مــن المستشفى وعــدت إلى المقرّ التكتيكــي للفرقة في جفير. رآني مــير حسيني وقال: «ابقَ هنا وأنجز الأعمال المطلوبة».

عندمــا كانت الكتائب ترجع من الخط، لم يكن أحدٌ هناك لاستلام الأسلحــة وتسوية أوضاعهــم، لذا تصدّيت أنا للمهمــة. وُجد في المكان سيــارة عسكريــة لا أدري لمــن تكــون. استلمــت الأسلحــة ووضّبتها في صنــدوق شاحنة التويوتا الصغيرة. جــاء مير حسيني وأراد العودة إلى الجزيرة. عندما رأى صندوق الشاحنة مليئًا بالسلاح سأل غاضبًا:

– لماذا استلمتَ أنتَ السلاح؟ أفرغ الشاحنة بسرعة!

– لم يكن مسؤول التسليح موجودًا.

أفرغتُ السلاح وأنا مستاء، بينما ذهب هو إلى الخط الأمامي.

عندما عاد ضمّني إليه وقال بلهجته الزابلية:

– أخ ميرزا! لا تنزعج مني، لقد تصرّفت هكذا لأنّ لكل عملٍ مسؤوله الخاص به، ويجب أن لا نتصرّف على هوانا.

طأطأت رأسي إذ كنت أعلم أنّني مخطئ.

أنهضــ من مكاني. الوقت تأخّر؛ غدًا سأذهب إلى «بدر» شرق نهـر دجلة. جادة الخندق – جزيــرة مجنون، إلى المجاري المائية المتداخلة، ورجل يقتحم ميادين الوغى. غدًا يوم آخر.

الفصل الرابع

أُصـاب بالدوار من كثرة الأوراق المكدّسة بعضها فوق بعض في هـذه الغرفة الصغيرة، ففي كل زاويـة منها توجد مجموعة، هـذه تحكي حادثة، وتلك تحكي عن إحدى العمليات. أُسرّ لأنني أستطيع فرز المذكـرات المتعلقة بعمليات بدر فأتمكن من قراءتها قبل أن يصل ضيفي. يبدأ «موسى مير شكار» كما يلي:

كنـتُ مع طلائع القوات الواصلة إلى شرق نهر دجلة، قمنا بتمشيط الخـط وتطهيره من أوّله إلى آخـره، وعملت الزوارق على نقل المقاتلين إلى منطقة المعارك.

لم تكن الفرقة قد استقدمت العتاد الكافي بعد، وكنا ندحر العدو ونجبره علـى التقهقر بما تيسّـر من السلاح والعتاد. التقيـت مير حسيني صباح العمليات، كان يصيح ويوجّه القوات. ذهبت نحوه، وما إن رآني حتى قال:

- أحضر الماء للمقاتلين فحسب.

لم تكـن المنطقة قد طُهّرت مـن الأعداء بالكامل، ومـا زال الجنود العراقيون مختبئين في الدشم والمتاريس. لم يكن معه أيّ سلاح، قدّمت له رشاش عوزي[1] كان بحوزتي وقلت له:

1- غوزي أو أوزي، وهو مسدّس رشاش أتوماتيكي ونصف أتوماتيكي.

- احتفظ بهذا الرشاش معك فلربما احتجته.

رفض بداية، لكن بعد إصراري قال:

- حسنًا! دعه هنا، ثم تابَعَ عمله.

وضعت الرشاش بالقرب منه، وذهبت لإحضار الماء. كان العراقيون قد استشرسوا في المقاومة، ومقاتلونا يدحرونهم شبرًا شبرًا.

انشغلتُ بإيصال الماء والعتاد إلى القوات ساعة من الزمن، وعدت إلى مير حسيني لأرى إن كان لديّ عمل آخر، فرأيتُ السلاح في مكانه لم يمسسه أحد. حملته وقلت مستنكرًا:

- لكن يا حاج...

قاطعني قائلًا: «أخبرتك أنني لا أحتاجه».

التقيتُ به مرة أخرى في العمليات التالية، وكان يحمل بدل البندقية مكبّرًا للصوت له مقبضٌ عاجيّ اللون، لطالما رأيته، وفي أحلك الظروف وأقساها، يهتف وينشر الحماسة بين قواته فينقضون على الأعداء. كان سلاحه مكبّرًا للصوت ولسانًا قاطعًا كلسان مالك الأشتر.

أشعرُ بالنشاط اليوم، والنسيم منعش والهواء بارد، يذهب عني الانقباض الذي شعرت به أمس. أحمل كتابات «حبيب دانش شهركي». كان عليّ أن أنتقي بعضًا منها لأضمّها إلى مجموعة أخرى من الأوراق لأستفيد منها في الوقت المناسب، وأبدأ بقراءة ما كتب عن عمليات بدر:

اصطفّت الزوارق في المجاري المائية، وانتشرت على الضفتين حقول القصب والنجيليّات. كانت المجاري المائية متداخلة، لا أعرف كيف لا

يتيــه الملّاحون فيها. وصلنــا إلى مفترق طرق فرأيــت الفوانيس وقطع الفلّين الأبيض التي تدلّنا على الطريق الصحيح.

كنــت أجلســ في القارب، وأنظر إلى الخلــف محدّقًا بمجاري المياه، محاولًا حفظ كلّ ما أراه.

عندما رآني مير حسيني أنظر إلى الخلف باستمرار سألني:

– ما بك، لِمَ تنظر إلى الوراء باستمرار؟

أجبته وأنا أحدّق في المجرى المائي التالي:

– أُمعــنُ النظــر بمجاري الميــاه لأحفظها حتى إذا مــا أجبرتُ على الانسحاب، لا أتوه فيها.

ما إن سمع كلامي حتى انتفض قائلًا:

– لا يحــق لك النظــر إلى الخلف. نحن نســير إلى الأمام، ولا يحق لنا النظر إلى الخلف، علينا النظر أمامنا فحسب، حيث خط الأعداء.

قال ذلك بحزم كبير، فلم أجرؤ معه على النظر إلى الخلف ثانيةً.

تقدّمنــا، واقتحمت القوات خطّ الأعــداء بشجاعة، وتوغّلنا في عمق جبهتهم. لم يفصل بين جزيرة مجنون والخطّ غير الماء، كانت الذخائر والعتــاد تصــل بصعوبة بالغة، كمــا إنّ مروحيات العــدو كانت تقصف مجاري المياه وحقول القصب ما أعاق عبور الزوارق.

في الخــط، أُجبرنا على الدفاع بما تيسّــر من الإمكانيات المحدودة. حوصرنــا بين الأعــداء والمسطحات المائيــة، وكنا نــرى أمامنا دبابات العدو وأعدادها تتزايد باستمرار. تراجعت قواتنا إذ لم يعد في الإمكان الصمــود والدفــاع أكثر مــن ذلك. كنــت في المقدّمة مع مــير حسيني،

سرغزي زاده، بودينه وعدد قليل من الإخوة. قلت لمير حسيني:

– بما أن قواتنا قد انسحبت، لِمَ لا نتراجع نحن أيضًا إذ لم يعد في اليد حيلة.

حينها نطق مير حسيني بما جعلني أخجل أن أطلق على نفسي بعد ذلك اليوم، اسم مقاتل أو مجاهد:

– قال لي قائد الفرقة الحاج قاسم سليماني، إمّا أن تحفظ الخطّ أو تستشهد فيه. وأنا بناءً لأوامر قائدي سأبقى هنا، إما أحفظه أو أستشهد دونه.

كنت أعرف مدى احترام مير حسيني وتقديره للحاج قاسم سليماني؛ لكنني لم أتصوّر أبدًا أنه على استعداد لبذل آخر قطرة من دمائه ليحافظ على عهده. كنا على يقين أن مير حسيني يعلم عجزنا عن البقاء، وأن الأعداد الغفيرة والهجوم الواسع للأعداء سيجبراننا على التراجع والانسحاب في النهاية، إلا أنه عقد العزم على الوفاء بالعهد الّذي قطعه على نفسه.

خلال العمليات، أسرنا أحد قادة الجيش العراقي، وكان قوي البنية طويل القامة، يبلغ طوله حوالي المترين. كانت هذه المرة الأولى التي أقيّد فيها يديّ أسير. كان من الخطر إبقاؤه طليقًا مخافة أن يهاجم الإخوة فيقطّعهم إربًا. حملناه في الزورق وأرسلناه إلى الخط الخلفي حيث بدأ مير حسيني باستجوابه. وبما أنني أجيد اللغة العربية بعض الشيء، رحت أترجم له.

تحدّث مير حسيني إليه حوالي الساعة بهدوء، رويدًا رويدًا انقلبت

حـال القائد العراقي وهـدأ روعه تمامًا، كأنّنا صببنـا الماء على النار. بعد ساعة تقريبًا أمرنا مير حسيني بحلّ وثاقه، ثم قدّم إليه البرتقال. فجأة أجهش الأسير بالبكاء، ثم ضمّ إليه مير حسيني وأخذ يقبّله. كان مير حسيني يمتلك رأفة علي عليه السلام في الحرب.

يُقـرع الباب. إنهما «حميد شفيعـي» و«حميد سرغزي زاده». يدخـلان ويتعجّبـان لوجـود كلّ تلـك الأوراق التـي تطوّقنـي. أشـرحُ لهمـا الأمـر فيضحـكان. نجلسـ علـى الأرضـ، نتبادل أطـراف الحديث، وخاصةً الحديث عن مير حسيني، فهو محور كلامنـا وأحاديثنا. يبدأ حميـد شفيعي الكلام، أضـعُ آنية حفظ الحرارة المليئة بالشاي والأقداح بجانبي كي لا أضطر للنهوض وإحضارهـا أثناء حديثه، أريـد أن أكون أذنًـا صاغية لكلّ كلمة يتفوّه بها. يبدأ الكلام:

وصلنا إلى شـرق دجلة. شرحتُ لمير حسيني الوضـع وسألته: «أين نتموضع كي لا نتعرض للمشاكل كثيرًا؟».

حـدّدَ مواقعَ القوات ونقاط الدفـاع، ووزّع قادة الكتائب قواتهم على تلك النقاط. قلت له:

- سنواجه مشاكل بهذا العدد القليل من العناصر.

- أوافقك الرأي، لذا أحضرنا كتيبة عباس زاده[1] أيضًا.

هاجمنـا العراقيون، وكان الصمود في مواجهتهم صعبًا للغاية، لكن مير حسيني أصرّ على قراره، وقال: «خذوا وضعية القتال وقاوموا».

1- عرج إلى السماء الزرقاء بوجه أحمرٍ قانٍ.

أرسلني أنا وبودينه إلى ميمنة القوات، وأرسل عددًا آخر من قادة الكتائب إلى الميسرة، بينما تولّى هو رأس الحربة.

اتصل مير حسيني بـ«بودينه» عبر اللاسلكي وقال له:

– أيها الرفاق لا خيار لدينا سوى المقاومة، فلا معنى للتقهقر في قاموسنا، لقد دخلنا المعركة كالإمام الحسين عليه السلام وسنخرج منها مثله مرفوعي الهامات.

هاجمنا الأعداء من كل حدب وصوب، ودارت معارك ضارية بالسلاح الأبيض. رغم ذلك، وكي يرفع مير حسيني من معنويات المقاتلين، وقف أعلى الساتر الترابي وراح يرمي على الدبابات العراقية. بقي على تلك الحال حوالي الساعة، ونحن نتوقع أن يتصل في أي دقيقة ويطلب منّا الانسحاب ولو مئة متر، لكنه لم يفعل. كان المقاتلون يدافعون عن مواقعهم بالرشاشات وقذائف الـ«آر بي جي»، وقد استشهد منهم عدد لا بأس به، لكننا لم نتزحزح عن مواضعنا قيد أنملة. صمدنا وقاومنا إلى أن تمكن العدو من فصل ميسرة قواتنا. عندها بدأنا انسحابًا تكتيكيًا متراسًا بعد متراس.

كان مير حسيني على الساتر الترابي عندما أصيب برصاصة فتدحرج على الأرض. ذهبتُ إليه ورأيته يبكي. نظرت لأرى مدى تقدّم القوات العراقية حين قال لي:

– أوصل سلامي للحاج قاسم سليماني.

اشتدّ قصف الأعداء خلف خطّنا في محاولة لعزلنا عن خطوطنا الخلفية. قلت:

– كفى يا حاج! هيا اركب لأحملك على ظهري ولنغادر المكان.

رفض قائلًا: «دعني هنا وارحل».

أجبرته على النهوض وانطلقنا. كنت قد تعلّمت من الإخوة في وحدة الاستطلاع في جبهة غرب البلاد دعاءً وَرد في حديث للإمام الصادق عليه السلام، يحتوي على معانٍ جميلة، ومما جاء فيه أن الله تعالى إذا شاء أن يحمي عبدًا ويحفظه كان له حصنًا ودرعًا منيعًا. رحتُ أتمتم بهذا الدعاء في الطريق.

أدرت رأسي لحظةً، فرأيت أن دبابة العدو قد وصلت إلى الساتر الترابي وصوّبت مدفعها نحونا. تمتمتُ بالدعاء، وأطلقتْ قذيفة، ولكنّها مرّت بمحاذاة جسمي.

أسرعتُ مع عدد من الإخوة نحو الزوارق. كان بالقرب من الـ«بَّد» (الموقع)[1] مستنقع فغرقنا في الوحل إلى الركبتين. لم أكد أتوقف حتى رأيت مروحية الأعداء تحوم فوق رؤوسنا وتطلق النار نحو الزوارق واحدًا تلو الآخر. أخرجنا الزوارق بصعوبة من بين القصب كان الظلام قد حلّ فقال مير حسيني:

– لقد عذّبتك بما فيه الكفاية، دعني هنا و..

قاطعته قائلًا: «يا حاج! ما إن يصل العراقيون إلينا حتى يصبح تكليفي أن أتركك هنا وأرحل.

بقينا هناك حتى منتصف الليل، لم يكن القارب يتحرك، سمعت

1– بّد: مواقع مائية محصنة بطريقة خاصة؛ حيث تردم المستنقعات وتقام عليها طرقات مستوية؛ وتجعل على جوانب وزوايا الطريق مواقع وتحصينات؛ قتالية، وللحراسة، والدعم والتجهيزات والمخازن أو الإسناد يطلق عليها (Pad).

صوتًا خافتًا يقول: «إيراني... إيراني!».

أصغينـا جيدًا لنتأكـد إن كان صاحـب الصوت إيرانيًـا أم لا! كان صوته مألوفًـا. عرفناه، إنه منصور حسيني[1]، مسـؤول تسليح الفرقة، وقد أرسله قاسم سليماني بحثًا عن مير حسيني.

ناديناه وقلت له إنّ العراقيين في المكان. حملنا مير حسيني على مهل ووضعنـاه في الزورق الصغير الـذي حضّره وانطلقنا في النهر لا نعرف ما إذا كنّا في الطريق الصحيح أم لا. كما إنّ قصف الأعداء لم يتوقف.

نظر مير حسيني في الأنحاء وقال: «إنه نهر إحسان، نحن في الطريق الصحيـح». غطّت السحب وجه السماء. استعنّا بنباتات القصب لدفع الـزورق إلى الأمـام وتقدّمنا وسط النهـر إلى أن ابتعدنا مسافة كافية عن الأعداء، ثم شغّلنا محرك الزورق مبتعدين عن المكان. بعد مسافة قصيرة سمعنا بعض الأصوات؛ كانت عناصر طهرانية. لما اقتربنا أكثر رأيت الحاج قاسم سليماني يقف بالانتظار. كان ينتظر مير حسيني.

يتنفّسُ بعمـق، فأقدّم له الشـاي كي يرطّـب شفتيه. يصمت حميـد سرغزي زاده كأنه عاد إلى ذلك اليـوم وتلك الساعة وذلك المكان ومن دون أن أنطق بأي كلمة أو سؤال، بدأ بالكلام:

كان الوضـع صعبًا جدًا، فقد انسحبتْ قواتنا ولم يبقَ سواي مع 7 أو 8 عناصر، لا ندري ما العمل. فجأة وصل مير حسيني وقال:

– يقول الحاج قاسم سليماني الانسحاب ممنوع.

أخـبر الجميـع، كان العراقيـون قريبين جـدًا، فراح يرمـي عليهم

1 – ارتقى إلى الملأ الأعلى مرتديًا ثوب الشهادة الأبهى.

القنابـل اليدوية، ثم نهض وحمل سلاح الـ«آر بي جي»، وضع يده على الزناد لكن القذيفة لم تنطلق فرماه جانبًا وعاد لرمي القنابل.

مرت دقائق وهو على تلك لحال. بيد أن ذلك لم يرضه فعاد وحمل الـ«آر بي جي»، لكن أيضًا لم تنطلق القذيفة، فرماه بغضب داخل الماء. فقدنا الأمل في الحفاظ على مواقعنا وشعرنا بالاضطراب. فقد اقتربت دبابـات العدو وراحت تفصل بين قواتنا، ولم يعد من سبيل أمامنا غير الوقوع في الأسر أو النزول إلى المستنقعات.

زحفتُ نحو مير حسيني، قال لي:

- سنبقى، لقد أمرنا قائد الفرقة بالبقاء.

- لكـن يا حـاج سنقع في الأسر، ولن يرضى الحـاج قاسم بوقوعك أسيرًا. على الأقل أنقذ أرواح من تبقّى من عناصر.

لم يكـن راضيًا؛ لكنه أعطى الأمر بالانسحـاب. كان علينا الوصول إلى الضفة حيث الـزوارق، انطلقنا ونحن نتوقع وصول العراقيين إلينا في كل لحظـة ليمطرونـا برصاصاتهم. وصلنا إلى حيـث تركّز قصف الأعداء، كانت القذائف تعبر من فوق رؤوسنا لتسقط في الماء وتنفجر. لم يسمـح لنا القصـف بالعبور فوق السدّ، اضطررنـا للسير بمحاذاته وقـد غمرنا الوحل حتى الركبتين. تناثر الجرحى هنا وهناك، لكننا لم نستطع فعل أيّ شيء لهم.

وصلتُ إلى أحد الجرحى، فأصرّ عليّ أن أخبر أهله بأنه وقع أسيرًا، وعلى بعد خطوات أمسكَ أحدُ الجرحى بقميص مقاتل يرجوه أن يأخذه معه، وعندما وصلتُ إليه تعلّق بقدمي. إلهي! ماذا عساي أفعل؟ حررّتُ

نفســي من قبضته بكل قسوة وتابعت طريقــي. ليتني جُرحت أيضًا فلا أصاب بعذاب الوجدان هذا. بعد مسافة رأيتُ عامل إشارة اللواء يجلس وينظر نحوي، لا أدري هل جلس من التعب أم هو مصاب. جلستُ قربه قليــلًا ثم نهضتُ وتابعتُ طريقي. بعدها رأيت جريحًا مخضبًا بدمائه، وقد رفع كمّي قميصه كأنما ينوي الوضوء.

نظـرتُ إلى الخلـف فرأيت الجنــود العراقيين قد وصلــوا إلى ذلك الجانب من الساتر الترابي، يهلّلون ويحتفلون بنصرهم.

وصلــتُ إلى الضفــة، كان في القــارب ثلاثة جرحى؛ فقــد أرسل مير حسينــي الجميع إلى الخلف. رأيتــه، وكان هو مصابًا أيضًا. ذهبتُ إليه ورأيــت معاون اللواء قد سقط في الماء فسحبته. أصر مير حسيني علينا أن ننسحب ونتركه. لم يرضَ أحد بذلك، حمله «شفيعي» على ظهره رغمًا عنه، وراح يركض به. انتابني قلقٌ شديدٌ وخشيتُ أن يحدُثَ لشفيعي أي مكروهٍ فينتهي أمرنا حينها. ما إن نهضت حتى غابا عن ناظريّ.

ركضتُ إلى جانب الصخرة فوجدتهما قد احتميا خلفها، بدا شفيعي خائر القــوى. قلتُ لمير حسيني إنّي سأذهب لأحضــر زورقًا، فلم يعقّب على الأمــر. في النهر، رأيتُ أحد العناصر يصلــح زورقًا فسبحت نحوه وركبــت معــه وجذفنا به نحو الضفــة حيث ركب مــير حسيني وشفيعي وانطلقنا. على بعد مئة متر من السدّ التقينا أحد العناصر في الماء، طلب مــن مير حسيني أن يقلّه معنا فسبح نحونا وركب الزورق. لم نكد نقطع مسافــة قصيرة حتى علق الزورق بــين نباتات القصب الصغيرة وباءت جميع محاولاتنا لجعله يتحرك بالفشــل. راح كلٌّ منّا يقدّم اقترحًا. كنا خمسة أشخاص وتضاعف قلقنا عندما سمعنا أصوات العراقيين.

كنا نأمل القيام بشيء ما عند حلول الظلام. بعد ساعة، عمّ الظلام وتعلّقت آمالنا بسماع أصوات قواتنا الذين قد يُرسَلون لإنقاذ مير حسيني. تنبّهنا لصوت زورق لكنّنا لم نكن متأكدين إن كان من قواتنا أم لا. أُطفئ محرك الزورق على مقربة منّا، وسمعنا أصواتًا، لكنّ كلامهم كان مبهمًا، لذا لم نتأكد من هويتهم. عيل صبرنا فالانتظار قاتل. بدأنا بالمناداة والصياح. نادى أحدهم: «مقاتل حسيني».

فقلتُ بصوتٍ عالٍ: «مير حسيني وليس مقاتل حسيني».

تقدّم منا وما إن رآنا حتى نادى طاقم الزورق، فشغّلوا محرّكه واقتربوا نحونا. حينها بدأ مير حسيني بالبكاء. لم أكن قد رأيت بكاءه من قبل حتى في أحلك الظروف، فبكيت معه أيضًا.

قال مير حسيني:

– كيف لي أن أنسحب؟ ماذا سأقول للحاج قاسم؟ كيف لي أن أتراجع وقد غرق «ميرزائي» أمام ناظري؟!

صُعقتُ للخبر، لقد ذهب ميرزائي لجوار أخيه! رفع شفيعي مير حسيني وساعده على ركوب الزورق الآخر. قال أحدهم: «إن لم يتسع الزورق فسأبقى هنا؟!».

لكن الزورق اتسع للجميع. انطلقنا في الاتجاه الخاطئ ناحية القوات العراقية الذين بدأوا بإطلاق النار نحونا. أطفأنا محركَ الزورق كي لا يكشف مكاننا للأعداء، وتوقعنا أن يأتوا لأسرنا في أي لحظة.

كان الظلام دامسًا، وقد غاب القمر خلف الغيوم، لذا لم نستطع أن نتبيّن طريقنا، كما إنّ مجاري المياه المتداخلة قد صعّبت مهمتنا.

كان مـير حسيني قد غاب عن الوعي، فانتظرنـا ريثما يعود إلى وعيه، ويرشدنـا إلى الطريـق الصحيـح للانسحاب. بعد ساعـات عدة، عاد وعيـه وقد ساءت حالته كثيرًا. نظـر في الأنحاء وقال إنّه علينا الحركة عكـس اتجاه أنوار مدينة القرنة العراقية ثـم فقد وعيه ثانية. اختلفت آراؤنـا وقـدّم كلٌّ منا رأيه الخاص، وما زاد من قلقنـا صوت الزوارق في الأنحـاء ونزيف جرح مير حسيني. في النهايـة انطلقنا ووصلنا إلى النهر الأساس. آلمنا أنين مير حسيني الخافت كثيرًا، كانت الرصاصة قد خرقت عظامه فاشتدّ ألمه.

خلال لحظات شعرنـا أن أحدًا ما يعطينا إشارات بواسطة الضوء. أطفأنـا محرك الزورق لنتأكد أولًا من هويتهـم. كم فرحنا لدى سماع صوتٍ باللغة الفارسية. اتجهنا نحو الصوت، وجدنا زورقًا آخر أمامنا. كان قائد الفرقة في ذلك الظلام واقفًا على الزورق، وقال عندما رآنا:

- مير حسيني؟

- هو معنا!

أجبتـه ثمّ أسرع إليه وسلّط ضوء مصباحه اليدوي على وجهه. فتح مـير حسينـي عينيه وبدأ بالبكاء لـدى رؤيته الحاج قاسـم، كان بكاؤه يشتدّ أكثر فأكثر.

وضع الحـاج قاسم رأسه على كتفه وأسرّ له بكلام ليهدّئ من روعه. أحضروا زورقًا آخر ثم وضعوا مير حسيني فيه وانطلقوا نحو قسم الطوارئ.

أسكـبُ لهما الشاي ثانية، بدا التعـب والإرهاق عليهما جليًا.

لقد وقعتْ أعباء الحرب على كاهل هؤلاء الرجال الذين يعمل اليوم كلّ واحد منهم في مكانٍ ما. يا لها من أيام عاشوها! كانت بعض أحاديثهم ورواياتهم عن مير حسيني أشبه بالأساطير، فهل يعقل أن يتحمل إنسان كل تلك المصائب؟ تُرى من كان مير حسيني ذاك؟!

يتحدّث مير عباس عن المستشفى وما جرى فيه، وكانت الحلقة المفقودة في أحاديثنا، أحداث عمليات «بدر». يغادر الضيوف فأعود وأجلس وسط الغرفة وأنا أتذكر حديث «مير عباس»:

علِمتُ في النصف الأول من شهر آذار[1] بخبر إصابة مير قاسم. قلت للعائلة إنّني في مهمة إدارية، وانطلقت نحو مدينة شيراز حيث وجدته في أحد مستشفياتها. لم أره قبل ذلك اليوم يعاني من مشكلات. كان يقول: «إنّه مستشفى خاصّ، لا يراعون فيه الأمور الشرعية، فالشبّان والفتيات يجولون معًا في ممرّاته. منذ أيام، عندما اعترضت على ذلك صاروا يحقنونني بالمهدّئات والمورفين كي أبقى نائمًا. أصبحتُ لا أستطيع أن أمضي يومًا من دون حقني بتلك المادة، أشعر أنني أصبحت مدمنًا عليها...».

كان يبكي من سوء تلك الأوضاع. قال مسؤول المستشفى إنّهم لم يصادفوا مريضًا كهذا من قبل. وقال الطبيب الجراح إنّه أجرى عملية جراحية لآية الله فلان وفلان، لكن أحدًا منهم لم يعترض كما يفعل هو...».

استنكرتُ الأمر، وتواصلت مع مركز (أركان) نقل الجرحى في

1- 17 أو 18 من شهر اسفند الهجري الشمسي.

الأهـواز، فوضعوا سيارة إسعاف في تصرّفنا، ونقلنا مير قاسم إلى كرمان. وبسبب عدم تلقيه العناية اللازمة في مستشفى شيراز، فَقَدَ وعيه في الطريق. وصلنا بصعوبة بالغة إلى قسم الطوارئ في «بردسي»، وبعد تلقّيه العلاج تابعنا طريقنا إلى كرمان حيث أدخلناه مستشفى الشهيد "باهنر". مع أنها كانت عطلة عيد النوروز، إلا أنّ الممرضين كانوا يأتون تطوعًّا للاهتمام بعلاجه. بقي في المستشفى أسبوعًا كاملًا، كان الناس خلال تلك المدة يعودونه من الصباح وحتى الساعة 12 ليلًا، جاء أيضًا إمام جمعة المدينة، قادة الفرق، مسؤولو المحافظة، المقاتلون وغيرهم.

انطلقنـا نحـو زابل. كان مير قاسم يتألم كثـيرًا في الطريق. توقفنا في "ماهـان" ووضعنا حجـرًا في سيارة الإسعاف كـي نزيد من وزنها، وبالتـالي يقـل اهتزازها. وصلنـا أول الليل إلى زاهـدان، وجاء الإخوة من الحرس والتعبئة لاستقباله. هناك بدّلنا سيـارة الإسعاف وتابعنا طريقنا نحو مدينتنا.

كان الجزء السفلي من بدن مير قاسم مغطّى بالجبيرة، لكنه خلال الشهريـن حين بقي في المدينة للعلاج لم يهدأ لحظة واحدة. كنّا نحمله علـى النقالة من مجلس إلى آخر لإلقـاء الكلمات، فيخطب بالمتطوّعين إلى الجبهات في المسجد والمصلّى، وفي الجامعة والمدارس وغيرها. كان يرفـع رأسه وهو ممدّد على النقالة ويلقي كلمتـه. كما إنّه تابع دراسته خـلال تلك المدة، إذ كان ينوي الالتحاق بالجامعة، كان الأساتذة يأتون إلى المنزل ويشرحون له الدروس.

عاد مير قاسم بعد تماثله للشفاء إلى الجبهة مباشرة.

أريـد أن أدع العمـل جانبًـا اليـوم لأجـول قليـلًا في مدينتي

سيستان وزابل. أسكبُ قدح شاي آخر لي وأسحب ورقة من بين كومة الأوراق. كتب حسن معزي:

في ذلك اليوم، دعونا للذهاب إلى المسجد الجامع حيث سيلقي مير حسيني كلمة. كنت قد سمعت باسمه سابقًا، وأعلم أنه أحد قادة فرقة «ثار الله». ذهبتُ مع الرفاق إلى هناك، كان المسجد مكتظًا. وجدنا لأنفسنا مكانًا وسط الجموع وجلسنا، لكنّ شقاوة أيام الشباب لم تدعنا نثبت في مكان واحد، قضينا الوقت ما بين إثارة الضوضاء والتقلّب والتململ.

هناك تعرّفت إليه لأول مرة. جسمٌ نحيلٌ ووجه نحيف، قدمه مجبّرة ويجلس على كرسي متحرك. أمر لا يُصدَّق! كان بعيدًا عن الصورة التي رسمتها له في ذهني، بُعد السماء عن الأرض. جلس قبالتنا وبدأ بالكلام، وأيّ كلام! في الدقائق الأولى، لم نكن نلتفت كثيرًا لكلامه، لم يمضِ وقت قصير حتى تحوّلت جدران المسجد إلى آذان واعية. الجميع صامت، وكأنّ على رؤوسنا الطير؛ حتى إنّنا نسينا التنفس، فقد ضجّ كلامه بالحماسة.

لم أدرِ كيف ومتى انتهى كلامه. عندما عدنا إلى المدرسة، قررنا جميعًا الذهاب إلى الجبهة. قد يصعب عليكم التصديق، لكنّ اثنين فقط من زملاء صفّنا لم يذهبا إلى الجبهة. أحدهما من الإخوة السنّة، والثاني بقي بصفته معيل العائلة، ليتمكّن أخوه من الذهاب إلى الجبهة. هذا أشبه بالأساطير، لكنّني عاينتُ ذلك بنفسي: رجلٌ على كرسيّ متحرّك، خطاب لا يُنسى، وصفّ خالٍ من تلامذته. حقًّا كانت حياة ذلك الرجل أشبه بالأسطورة.

أنهضُ من مكاني، فأنا أيضًا إنسان، وكيف لي أن أتحمّل كلّ ذلك؟! وكم هي طاقتي كي أتحمّل خلال يومين أو ثلاثة، التعرّف إلى رجل يعادل ألف رجل، هو جوهرة خاتم هذه الديار! كلّ الظن أنني أمام أسطورة. لقد قابلت وتعرّفت إلى كثير من الرجال، لكنّ هذا الرجل يختلف عنهم.

أنهض إذ عليّ الذهاب.

الفصل الخامس

تتوقّف السيارةُ أمام الباب ويطلق السائق العنان لبوقها. أجهّز نفسي بسرعة، أحمل الأوراق التي أحتاجها وأخرج. ينتظرني في الخارج شاحنة (تويوتا) صغيرة وشخص لا أعرفه. ألقي التحية وأركب بسرعة. أعرّف عن نفسي فيقول:

– أنا محمد ميري، ابن أخت الشهيد مير حسيني.

كنتُ قد أخبرتهم أنني أريد الذهاب إلى منزل «عائلة مير حسيني» القديم، فقالوا لي إنّهم سيرسلون في الصباح أحدهم ليأخذني. كانت الطريق مزدحمة، ويسير التلامذة على جانب الطريق باتجاه المدرسة وهم يراجعون دروسهم من دون الالتفات إلى ما يجري حولهم. فهذا فصل إجراء الامتحانات.

بداية، نجول في المدينة، يعرّفني محمد ميري إلى مهنية الزراعة حيث كان مير قاسم يدرس، ومن ثم نذهب إلى منزله في المدينة بعد الزواج حيث أُصيبت أخته برصاصة. قرأتُ مختصرًا عمّا حدث، لكنّني كنت أريد معرفة المزيد.

أدوّن ملاحظة على هامش الورقة لأتذكرها فيما بعد وأسأل عنها. أتصفّح الأوراق التي أحضرتها معي، وأقرأ ما كتب «يوسف كيخا»:

عُقـدت في العـام 1985م جلسـة خطابيـة حـول الحـرب والجبهة لموظفـي الحكومة في مسجد رضـوان. كان الوقت عصرًا، وشارك فيها مـير حسينـي خطيبًا، على أن تقام صلاة المغـرب جماعةً مباشرة بعد خطابه. بدأت الجلسة بعد ساعة عن موعدها المقرر مسبقًا، كما طالت التحضيرات لها. بعدها اعتلى مير حسيني المنبر لإلقاء كلمته.

وسط إلقاء الخطاب، دخل الشيخ «بياني» إمام الجمعة في زابل ليؤمّ الصلاة، فقطع مير حسيني خطابه احترامًا له ودعاه لإلقاء كلمة، فقال الشيخ: «علينا التحضير لإقامة الصلاة لذا ينبغي أن تنهي كلمتك».

أنهـى مير حسيني كلامـه وانشغل الجميع بالتهيّـؤ للصلاة. بعدها ذهبنـا إلى منزل مير حسيني المستأجـر والقريب من المسجد، وبما أن الشيـخ بياني قطـع كلمة مير حسينـي بقيت الجلسـة ناقصة، وهناك خاطب مير حسيني الحضور قائلًا: «يجب توجيه الشكر لإمام الجمعة، فجـلّ اهتمامنا منصبّ على إقامة الدولـة الإسلامية وإقامة الصلاة، وهذا ما قام به. فلا تنزعجوا كي لا يغضب الله مني».

أسكتنـا جميعًـا بهذا الاستدلال، بعد ذلك لم يتطـرق أحد إلى هذا الموضوع.

أتعجّب كثيرًا لسلوك هذا الرجل. إذ التقيتُ عدداً من الرجال؛ وكل من التقيتُ به إلى الآن مثّل بُعدًا واحدًا، أو كان الغالبُ على شخصيتـه أمرًا واحدًا، فكان أحدهم شجاعًـا، والآخر أهل سير وسلوك أو أهـل مطالعةٍ فقط. قلّما عرفت محاربًا يجمع كل هذه الخصال. كتب عبد الله أفشاري عن أيام الجبهة:

ذهبتُ إلى الجبهة حديثًا، في ذلك اليوم وقفت أمام مركز الحراسة،

ركبتُ سيارة متجهة إلى الأهواز، وأجريت اتصالًا بزابل فقد اشتقت كثيرًا لمدينتي. أثناء ذلك وصلت سيارة مير حسيني وتوقفت خلف نقطة الحراسة، كان يريد الخروج من المعسكر. حدّثت نفسي أن ألوّح له بيدي ليتوقف. لكنّ عزة نفسي لم تسمح لي بذلك، لذا سرت بمحاذاة الأشجار على جانب الطريق ريثما يبتعد.

سمعتُ صوت محرك السيارة إشارة لخروجها من نقطة الحراسة، ومن ثم سمعت بوقها. بداية لم أتوقع أن البوق يقصدني أنا، لكنني التفتّ إليه فتأكدت أنّه إشارة إليّ. سرت نحوه فسألني:

- إلى أين؟

- إلى المدينة، أريد أن أجري اتصالًا.

ركبتُ السيارة وانطلقنا، عندما وصلنا إلى تقاطع طرق «نادري» بالقرب من مركز الهاتف قلت له:

- سأنزل هنا.

- اصبر قليلًا.

وصلنا إلى فندق بالقرب من نهر كارون. نزلنا من السيارة ولم أدرِ ما الأمر، لكنني أدركت أن عائلات القادة تسكن فيه. لا أدري إن كنا وصلنا إلى الطابق الثاني أو الثالث، طرق الباب ودخلنا.

قام مير حسيني بواجب الضيافة وأنا أتصبّب عرقًا من الخجل. أحضر الهاتف وقال: «اتصل بمن تشاء».

أنهيتُ اتصالي وقال لي: «ستبقى هنا للغداء، لقد مرض ابن الأخ بودينه وهو ليس هنا، لذا سآخذ طفله إلى الطبيب وأعود».

بعـد كثير من الترجّـي والأعذار استطعتُ أن أتملّصـ منه وأغادر، ولـولا إصراري الكبير لما تركنـي وشأني. ودّعته ورحلـت، لقد عاملني كأنه ليس قائدًا من قادة الفرقة، ولستُ تعبويًا جاء حديثًا إلى الجبهة!

نخـرج مـن المدينة، نمرّ بالمـزارع الخضـراء والذهبية حيث الرياح الحـارة، ونصل إلى منزل الحاج مـراد علي، يركب معنا وننطلق ثانية.

قـال الوالـد: «جئنـا إلى هنـا بعـد سيـل عـام 1991م، وكبر وترعـرع أبنائـي في هذا المنـزل». لا أدري لمَ تعلّقت بهذا الرجل العجـوز والحيـوي إلى هـذه الدرجـة، ففيـه تتجسّـد أساطير القدمـاء، عجـوز أشيـب الرأس ذو قامـة منتصبـة، يرتدي زيّ سيستان الأرجواني.

نصل إلى مسجد فيقـول الوالد: «لقد بنى مير قاسم وإخوته هـذا المسجد بعد الثورة». ندنو منه وننظر عبر النافذة، نجد أنّ الغبـار والـتراب يغطّيان المـكان، يقول الوالـد: «لم يعد من أحد ليهتـم بالمكان بعد استشهاد مير حسن». نذهب خلف المسجد إلى منـزل من 3 غرف، يشير الوالد إلى الغرف بعصاه قائلًا: «كانت هذه غرفتنـا، وهنا عاش مير حسن وزوجتـه، وتلك كانت غرفة مير قاسم».

كانت الغرفة التي أشـار إليها صغيرة، ندخل ونرى تشقّقات في السقـف. المنـزل مبنـي مـن الطـين والقش. نجـد في إحدى الغـرف روث البقـر وفي الأخرى عـددًا من الدجاجـات والديكة ينقدون الحبّ. نعود ونجلس قرب جدول الماء. هناك يبدأ محمد

ميري الكلام:

كان عليه في أحد أيام الجمعة إلقاء كلمة قبل الخطبة في المسجد. اهتمّ بهندامه كثيرًا وارتدى زيّ الحرس الأخضر المكويّ جيدًا، لمّع حذاءه العسكري (البوتين)، سرّح شعره ورشّ العطر. قلت له ممازحًا:

- كم تهتم بهندامك يا حاج؟

أجاب وهو يعقد رباط حذائه:

- أولًا، أنا قائد وعليّ الظهور أمام الناس بمظهر لائق؛ خاصة عندما أريد إلقاء كلمة فيهم. ثانيًا، أنا ذاهب لصلاة الجماعة، وإذا رأيتني تزيّنت وتطيّبت فلأنني سأكون في حضرة الباري جلّ وعلا.

توقّف قليلًا وأردف:

- أريد أن أُطلع الناس على أخبار الحرب والجبهة، ويجب أن أظهر أمامهم بمظهر أنيق.

قال هذا وذهب.

في تلك الأيام طال شعر رأسي، كنت حينها في المدرسة الثانوية. كان مير حسيني قد عاد حديثًا من الجبهة، وما إن رآني على تلك الحال حتى سألني ضاحكًا:

- لِمَ طال شعرك إلى هذا الحدّ؟

- لا شيء، هكذا!

- تعال لأقصّره لك، فالشعر القصير سهل الغسل والتسريح فلا تهدر وقتك لأجله.

- لكن بشرط واحد يا حاج!

- أي شرط؟

- إن كنتَ لا تجيد تقصير الشعر فلا تفعل!

ضحك وقال: «حاضر».

أحضر المرآة والمقص وبدأ العمل. قصّره بطريقة جيدة لم أكن أتصوّرها. بعدها قال: «الآن يمكن أن نُطلق عليك اسم تعبوي». ثم ضحكنا معًا. كان لمير قاسم سلوك استثنائي. أذكر أنه جاء إلى المنزل بعد زواجه بيوم واحد، وكان في المنزل أحد الأقارب. دخل مير قاسم، وما إن رآه حتى خرج وأغلق الباب. سألته:

- لم فعلت ذلك يا حاج؟

- الذين لا يميّزون الصالح من الطالح، ولا يعرفون مصلحة الوطن والعائلة، لا يجدر بنا أن نتحدث إليهم؛ ناهيك عن مسامرتهم والتودّد إليهم والضحك معهم.

في إحدى المرات، كان الحاج علي يبني هذا المنزل ويساعده جميع أبنائه على ذلك. عند المغيب غسل مير قاسم رأسه وجفّفه بالمنشفة، في تلك الأثناء جاء الشخص نفسه، سلّم على الجميع، لكنّ مير قاسم لم يعره اهتمامًا. بعد أن ذهب اعترض الجميع على سلوك مير قاسم ما اضطره للقول: «أنا لن أسلّم أو أتحدث إلى شخص كهذا، ونسلٍ كهذا، فأنا أذهب إلى الجبهة وأرى أفضل شبّان أمتي يقطّعون إربًا إربًا أمام عيني، ويخسرون أعضاءً من أجسامهم لأجل حفظ قيم هذه الثورة، ولحفظ عرض وشرف هذا الرجل، ولأجل أن يتمكن من العيش والعمل

براحــة بال. بينما هو يضــرب بفأسه على جذور الثورة، ويستهزئ بمن يضحّي بنفسه في جبهات القتل، فكيف لي أن أتحدّث وأتودّد إليه؟!».

لم يتفــوّه أحد بشيء بعد هذا الكلام. هو مير حسيني؛ لكن بأخلاق ولسان أبي ذر الغفاري.

في إحدى المرات، جاء في إجازة، وقدِم لزيارته قائد فيلق «النبي الأكــرم10ﷺ»، السيــد جاهد مع زوجتــه وأبنائه. جــرى الحديث عن الحرســ الثوري لمدينــة زابل، قال مير حسينــي: «لمَ لا يسمحون لأبناء المدينة بالذهاب إلى الجبهة، لِمَ ترسلونهم إلى بلوتشستان ولِمَ...

ومهمــا قال مير حسينــي واعترض، لم يُجد نفعًا ولم يغــيّر السيد جاهــد رأيه، احتــدم الجدال بينهما فقال مير حسينــي غاضبًا: «لو لم تكن ضيفًا في منزلي لكان لي معك تصرّف آخر».

بعــد كثير من الجدال، مُدّت مائدة الطعــام فجلسا إليها يتسامران ويتمازحان كصديقين حميمين كأنهما لم يتشاجرا منذ وقت قليل.

كان مير حسيني عطوفًا مع شبّان المدينة، كان كالأب الحنون معنا، وكنّا نتوقع منه الكثير.

نركــب السيــارة وننطلق. يقــول الرجــل المسنّ الأسطورة: «سنذهب إلى البستان». أشاهد البيوت الطينية تتوزّع على طول الطريق. أمعن النظر فأجد أنّ لكلّ منزل عددًا من الدجاج والديكة والخراف وكلب حراسة، وأشاهد الأبقار في بعض البيوت.

نصــل إلى مزرعــة محاطة بأشجــار التفاح. جميــع الأشجار تبــدو قصيرة، ونادرًا ما شاهدت خلال الأيــام المنصرمة شجرةً

طويلـة. فالرياح التـي تستمر 121 يومًا في العـام لا تسمح بأن تطول الأشجار وتنمو بشكل طبيعي. ننزل من السيارة، ويسير العجوز أمامنا. يسير ويشير بعكازه إلى أشجار الرمان ويقول: «لقد زرعها مير قاسم كلّها».

كان يعدّها ويقول بفخر واعتزاز: «18 شجرة!».

نجـول في البستـان الذي يضـم أشجـار التفـاح والمشمش وعرائش العنب، ونزولًا عند رغبة وإلحاح العجوز نملأ جيوبنا بالتفاح. نجلس أنا ومحمد ميري خلف الشاحنة الصغيرة، يريد العجـوز أن يجلس معنا فلا نرضى. تتحـرّك السيارة، وأستمع في الطريق إلى أحاديث محمد ميري أيضًا:

كان مـير حسيني كلما جاء إلى سيستان، يـزور القرى، قريةً قريةً، ويدعـو أهلها للالتحـاق بالجبهة، ولم يتوانَ عن ذلـك، وبقي على تلك الحال يدعو الناس قرابة العشرة أيام.

في إحـدى إجازاته، قرّرتُ الذهـاب إلى الجبهة. لكن ما إن أخبرتُ الأهـل بالقرار حتـى تصاعـدت الأصـوات المعارضـة. كلٌّ واحدٍ أدلى بدلـوه: «أنت صغير الجسم، ضعيف البنية، مـا زلت صغير السنّ على الحرب...».

لم أتراجـع عن قـراري، وتوسّلـت كل سبل الرجـاء والتهديد، لكن العائلة قابلتني بالمعارضة والاستنكار. في أحد الأيام، جاء مير حسيني إلى منزلنـا، فتحلّقت العائلة حوله تطالبه بمنعـي من الذهاب. يومها قـال كلامًا لافتًـا: «بصفتي قائـدًا أدعو الآخرين للالتحـاق بالجبهة، وأقـول لك نحـن بحاجة إليك، ومـن الصواب أن تقـوم بالتطوّع. لكن

بصفتـي خالك أقـول لك إنّ عددًا كبيرًا من أفـراد العائلة في الجبهة، وأنت ضعيف البنية. وإذا أردت يمكنك الالتحاق في الدفعة التالية».

كان هـذا الجـواب كالمياه الباردة التـي أطفأت النـيران المتأجّجة. وتغيّر مجرى الحديث فراحوا يقولون له: «لِمَ تذهب دائمًا إلى الجبهة؟ فهل سُجّل قيدها باسمك فقط؟ دع الآخرين يذهبون...».

أجـاب مير قاسـم: «حسنًا! لـن أذهب ثانية، لكن هـل تتعهّدون إن بقيـتُ أنا داخـل المنزل أن لا يأتي الموت إليّ؟ وإن حان أجلي أن تؤخّروه إلى وقت آخر كي أبقى على قيد الحياة؟».

صمت الجميع بعد سماع هذا الكلام. بعد أيام، رجع مير قاسم إلى الجبهة، وبقيتْ معنوياته تلك مطبوعة في ذهني.

أتذكـر السؤال الـذي شغل ذهني: «حقًا، كيـف أصيبت أخت مير قاسم برصاصة؟»؛ أسأل ميري..

في المـرة التالية عندما عاد مير قاسـم إلى سيستان، وقعت حوادث جعلتني أتذكر صلابة الجبال. فالله يمتحن الإنسان امتحانات صعبة، لـو وضعـت على الجبـال لتصدّعـت، وقلائل هم الذيـن يخرجون من تلـك الامتحانات مرفوعي الرؤوس. كان الوقـت شهر أيلول، اصطحب معـه زوجته وعائلته لزيارة مشهـد المقدسة. في طريق العودة، تعرّضوا لحادث سير وأصيبوا جميعهم، لكنّ إصابة والده الحاج مراد علي كانت الأخطر. نَقَلَ مير قاسـم، بالرغم من إصابته، الجميع إلى المستشفى. ونقل الحاج مراد علي إلى مستشفى زاهدان حيث أصيب في عنقه. قال مـير قاسم عن تلك الحادثة: «كانت تلك المرة الأولى التي أحصل فيها على إجازة لأجل نفسي وعائلتي، وشاء الله أن يقول لي...».

عاد إلى الجبهة، ووالده ما زال راقدًا في المستشفى، ليرجع بعد عدة أيام. حينها كانت أخته التي استشهد زوجها في عمليات «والفجر4»، تقيم مع زوجة مير قاسم. عندما رجع وضع مسدسه في المنزل. حملت زوجة مير قاسم المسدس وأطلقت منه رصاصة عن طريق الخطأ، فقُتلت الأخت على الفور. في تلك الأيام، لم يكن أيّ من إخوته في سيستان، وبالرغم من حالته النفسية إلّا أنه عمل على تنظيم مراسم الدفن. وفي اليوم نفسه الذي شارك فيه أخي وابن عمي في مراسم دفن خالتي وقع حادث سير معهما وقُتلا أيضًا.

لقد نزلت كل هذه المصائب، خلال يومين، على رأس مير قاسم، وهذا ما قصدت به أن الله يمتحن عبده أحيانًا امتحانًا صعبًا. كان الجميع يعيش الصدمة، بينما عمل مير حسيني على رفع معنوياتهم وتطييب خواطرهم.

بعد دفن خالتي عدنا سريعًا، فأخبرونا أنّ أمي قد وَلَدَت ولم تكن في حال جيدة، فقد حزنت كثيرًا لموت خالتي، فراح مير قاسم يمازحها ويسألها عن الاسم الذي اختارته للمولودة الجديدة. ولأنّ أمي لم ترغب في رؤيته حزينًا قالت له: «كُبرى».

ابتسم مير قاسم وقال: «هذا جيد، يجب أن يبقى اسم «كُبرى» حيًّا بيننا. يومها واسى مير قاسم أمي والجميع، لقد رأيت فيه جبلًا شامخًا صلبًا.

نصل وأنا لا أزال أفكر بما سمعته من محمد ميري. يدعوني الرجل العجوز إلى منزله، لا أفعل فأنا أفكر بأمر آخر، أقول له إنّني سآتي في يوم آخر، ثم أودّعه وأركب سيارة البيك أب.

أسأل: «هل يمكننا الذهاب إلى المقبرة؟».

ينظـر محمد ميري إلى السائق الـذي يتململ: «لقد فرغنا من البنزين... وأصبح الوقت ظهرًا...».

لم يرغـب في ذهابنـا فأقـول: «حسنًا سندع ذلـك ليوم آخر»، وأطلبُ من محمد ميري أن يحدّثني أكثرَ عن ذكريات ذلك اليوم. يبدأ بالكلام:

كان مـير حسينـي معلّم أخـلاق. أوّل مرة ذهبت فيهـا إلى الجبهة كتب تعقيبات الصلاة على ورقة وأعطاني إياها قائلًا: «احفظها». كان يسألني عنها باستمرار.

في تلـك الأيام، ذهبنـا إلى منطقة الهور، وعنـد عودتنا كنت أفكر أننـي سأحصل على طعام أفضل بما أنني مع مير قاسم، واشتد جوعي لمجرد التفكير بالأمر.

وصلنـا إلى المعسكـر وذهبنـا حيث يقدّمـون الطعـام فأخبرونا أنّ الطعـام قد نفـد. لم أصدّق حين نظرت إلى القـدر، وغضبت لأنّهم لم يحتفظوا بحصّتينـا جانبًا. حينها جمع مير حسيني الطعام المتبقي في صحـون الإخوة وقـال لي هامسًا باشًّا: «انظر كم بقـي من الطعام، لقد تركـوا هـذا كلّه لنا». ثم جلس إلى المائدة وبدأ بتنـاول الطعام بشهية كبيرة، تأفّفت بدايةً، ثم دنوت من المائدة رويدًا رويدًا وشاركته الطعام.

تقـرّر القيام بعمليـات في منطقة الهور، انتظرنـا وقتًا طويلًا بعض الشـيء، قبل أن يبلّغونـا بإلغائها. في تلك الأيام طلـب مير قاسم مني مرافقتـه إلى المنطقـة. بقينا هناك حوالي الساعـة، وفي طريق العودة

ركبنـا قاربًا صغيرًا ذا محرّك، وكنـا نتحدث عن مشابهة هذه المنطقة بسيستـان وهامـون. فجأة، ظهـرت أمامنا عوّامة تـكاد تتسع لشاحنة تويوتـا صغيرة، اصطدمت بالقوارب بشكل مفاجئ، وغرق قاربنا بلمح البصر. اتجهت العوّامة نحونا مباشرة وحُشرنا نحن بين القاربين. كنا في وضـع خطير لا نُحسـد عليه، وقد رأينـا الموت بأمّ العـين. أردتُ أن أقوم بحركـة ما فلم أُفلح، فقد التصقت يـداي بصدري وبطني. كنت في وضع سيّئ للغاية. شكّل اثنان من ركاب القارب درعًا للبقية، أصيب أحدهـم بقطع في نخاعه الشوكي والآخر كان مير حسيني الذي تعرض لرضوض كبيرة. تراجعـت العوّامة، ورأيت مير حسينـي الذي لم يعد يستطيـع التحرك محاولًا العوم والسباحـة بقدميه فقط، كاد أن يغرق في المياه الراكدة ولم يكن باستطاعة أحد منا مساعدته.

كنتُ قد تعلّقـت ببدن قاربنا، فربطت كالـون (جالون) المحروقات الخـالي سعـة 20 ليترًا بحبل، ثم رميته ناحية مـير قاسم، وطلبت منه أن يمسك به. تذكرت أن مير حسيني عاجز عن تحريك يديه فكيف له بالسباحة وتحريك جسمـه. وعلى الرغم من صعوبة وضعه إلّا أنه كان يطمئنني باستمرار: «أنا بخير فلا تقلق...».

كان يفكـر بـي وهو على تلـك الحال، حقًّـا لقد أخجلنـي تصرّفه. ساعدته مع بعض الإخوة وسحبناه خارج الماء. كان في حال سيئة جدًا، نقلنـاه بسرعة إلى المستشفى. هناك حاولت أكـثر من مرّة أن أفهمهم مـن يكون كي يهتمـوا أكثر بعلاجه، لكنه لم يسمـح لي قائلًا: «أريد أن أعامل كالتعبويين تمامًا!».

بعـد مدة من الاستشفاء والعلاج عدنـا إلى الفرقة؛ كانت كلماته لا

تزال ترنّ في أذني «أريد أن أكون كالتعبويين تماماً!».

في الليلة الثالثة لعمليات «والفجر 8»، كانت كتيبتنا في محور «خور عبد الله»، وأمام أنظارنا الكثير من التحصينات المنيعة التي أقامها العدو. تلقّينا التوجيهات والإرشادات اللازمة للعمليّات من قِبَل مير حسيني في ثكنة قشلة العراقية. هناك قال لنا: «شدّوا أحزمتكم جيدًا. وحافظوا على معنوياتكم العالية المنبثقة من إيمانكم ومعتقداتكم. لا تعطوا للأعداء أي فرصة، بادروا لاصطياد دباباتهم بحول الله وقوّته. صَفّوا نيّاتكم هاهنا، واطردوا عنكم أي ذرّة من الشك أو الريبة. أيها التعبويّون! النصر لنا إن شاء الله».

طلبوا منّا أن نستريح إلى أن يحين موعد الانطلاق، تمدّدت على الأرض ولشدّة التعب غالبني النعاس. استيقظت قبل انبلاج ضوء النهار، ولأنني عامل الإشارة اتصلت بمير حسيني الذي قال: «هيا ابدأوا بالهجوم وسيتحقّق الوعد الإلهي عاجلًا».

ما إن قال هذا حتى انطلق رتل الكتيبة. بعد مسافة قليلة، غطّى الغمام الأسود السماء وعمّ الظلام. في تلك اللحظة، نظر قائد كتيبتنا، وقد كنت برفقته، إلى السماء وقال: «الحق أنّ مير حسيني قائد لائق».

لا أدري أيّ حالٍ ألمّت به ليقول هذه الجملة من دون أي مقدمات. لكن بعد مسافة أدركت أنّ الأعداء كانوا يترصدون هجومنا طوال الليل، وعندما حلّ الصباح ولم يرصدوا أي حركة لنا ذهبوا للاستراحة.

بدأت العمليات وبدأت قواتنا بالهجوم. كان عددنا قليلًا، فقد بقيت معظم العناصر في الخلف كعناصر احتياط. أطلق مقاتلونا النار وتقدّموا، ولم يكن العراقيون قد استفاقوا من الصدمة بعد. سقط

عامـل إشـارة إحـدى السرايا أرضًـا فاعتقدت أنّه جـرح، لكن عندما دنـوت منه علمـت أنّ معنوياته قد انهارت فأجـبرني قائد السرية على الذهـاب معهم. كان العراقيـون على مقربة من مثلّـث طرق خور عبد اللّه يقصفـون المنطقة بشكل جنوني. حتى إنّهـم استخدموا المضادات الجويـة للقصف الأرضي. في تلك اللحظة، رأيت أحد القادة العراقيين يفرّ في سيارة «باترول» عسكرية.

انسحـب الأعـداء من الخطـوط الأمامية إلى خطوطهـم الخلفية، وجمعوا قواتهم في نقطة واحدة، ثم زادت تحركاتهم شيئًا فشيئًا. أدّت كثافة النيران لانهيار معنويـات مقاتلينا، وشُلّت حركتنا. كم رغبتُ في تلـك اللحظة أن تنشقّ الأرض وتبتلعني لأتخلص مـن كثافة النيران. كنـت أفكـر بما يمكن القيام بـه عندما انفجرت قذيفـة دبابة بالقرب منّـا أدت إلى احتراق جسم قائد السريـة الذي كنت برفقته فاستشهد على الفور. شعرتُ بالعجز عندما وصل قائد الكتيبة ورأى الوضع، قال: «اتصل بمير حسيني لنعرف تكليفنا».

اتصلت بـه، ولأنني لم أكن أحمل دفتر الرمـوز والشيفرات، ناديته باسمه في جهاز اللاسلكي:

- مير حسيني... مير حسيني

جاء صوته من الجانب الآخر:

- أسمعك، من معي؟

- أنا أحمد.

أخبرته بالوضـع. كان صوتي مضطربًا من دون إرادة مني، فغضب

وصاح بي قائلًا:

- ما بك؟ لِم انهارت معنوياتك؟ تمالك نفسك.

- لكـن يـا حاج! أنـا لم أفقد معنوياتـي، لقد نقلت لـك كلام قائد الكتيبة فحسب.

صمت لحظة ثم قال:

- قاوموا... واصبروا أنا قادم.

لم يطل الوقت حتى سمعـت صوت دراجة نارية من الخلف، نهضتُ ونظـرت نحوه، إلّا أنّ العـدو علم بقدومه عندمـا ناديته من دون رمز، فأمطـروا الجادة بالنـيران. ومع تـوالي الانفجارات، كانـت الدراجة تتمايل يمينًا وشمالًا. بهرنا برؤيته، ونسينا الحرب والمعارك.

عندما وصل إلينا، وقف فوق دراجته، كان الجميع خائفًا. أشار بيده إلى أحد قادة الفصائل وقال بحدّة: «ماذا تفعل هنا!».

عرّف القائد عن نفسه، فقال له مير حسيني بصوت عال: «إذًا أين قواتك؟ وماذا تنتظر؟».

بينمـا كان قائد الفصيل يعـود القهقرى، حمل سلاح أحد الجرحى وأسرع إلى قواته الذين كانوا يقاتلون في المقدّمة.

تـولّى مير حسيني قيـادة القوات، فكان يصيح بصـوت عال ويرفع من معنوياتهم. حينها شعـرت بالأمان. قال لي: «اتصل بوحدة الهاون والـ106».

اتصلـت بالحـاج مهـدي زنـدي، أخـذ مـير حسيني منـي سماعة

اللاسلكي وقال: «لقد وجدت ساحة صيد الدبابات فأرسل المدفع 106، بسرعة يا حاج».

هـو أيضًا تحدث من دون شيفرة أو رمز وقال: «سيخاف العدو أكثر عندما يسمع ذلك».

في ذلك الوضع، كان يقول بكثير من الحماسة في اللاسلكي: «العدو يفرّ أمامنا، لقد حوصروا وسيُقضى عليهم بالكامل...».

لم تكـن سيـارة الجيب التي تحمـل مدافع 106 المضـادّة للدروع قد وصلـت بعد، عندما خـرج العراقيون من دشمهم رافعـين أيديهم فوق رؤوسهم مستسلمين.

بعـد تلك المرحلة من العمليـات، ركبت الدراجـة النارية وعُدت مع مـير حسيني إلى الخطوط الخلفية، وفي الطريـق التقينا الحاج قاسم سليمـاني قائد الفرقة، كان منزعجًا جدًّا فقال: «لمَ تتدخل في المعارك لأجـل 70 أو 80 عنصرًا؟ لمَ لا تراعـي التسلسل في الرتب والمراتب؟ في البداية قائد الكتيبة، يليه قائد اللواء والمحور، ثم التخطيط والعمليّات، وفي النهاية يأتي دورك. لمَ تتصرّف كما فعلت في عمليات بدر...».

كان الحاج قاسم يريد بذلك القول له أن يحافظ على سلامته أكثر. بعـد كل هذا الكلام الناري، ضحك مير حسيني ضحكة قصيرة وقال: «حاليًا ما زلت سالمًا».

كنـتُ أعلم، كمـا مير حسيني وقائـد الفرقـة، أن لا فائدة من هذا الكلام فلن يطبّقه.

نصلُ إلى المنزل الذي حبست فيه نفسي خلال الأيام الماضية.

أترجّلُ من السيارة وأدعو من برفقتي للدخول فلا يفعلون. أودّعهم وأدخل الغرفة وأصبح وحيدًا وحيدًا..

اليوم، لا أريد أن أقرأ شيئًا أو أن أكتشف سرًا آخر من أسراره، وأوكلُ هذا للغد. أتمدّدُ في الغرفة، أضع الأوراق التي أنهيت قراءتها حتى هذا اليوم في زاوية، والأوراق التي ما زالت تحمل الكثير عنه، في زاوية أخرى. أمدُّ يدي وأحملُ إحدى تلك الأوراق. كانت تضم كلمات حبيب الله دانش شهركي:

كان مير حسيني يولي أبناء المحافظة الأصليّين اهتمامًا خاصًّا، ليس ذلك من باب الشعور القومي، وإنما لإيمانه أن النمو الفكري والديني والثقافي لهؤلاء سينعكس إيجابًا على الوضع في سيستان.

أذكر عندما تقرّر تشكيل الكتيبة 409، كأوّل كتيبة مستقلّة لمحافظة سيستان وبلوتشستان، اقترح بداية على الشهيد خدري تولّي تشكيلها، ومن ثم على السيد محب علي فارسي، اللذين تهرّبا من الأمر. ثم اقترح عليّ ذلك فاختلقتُ له الأعذار ورفضت.

كنتُ خارجًا عندما وجدتُ نفسي وجهًا لوجه مع قائد الفرقة الذي وجّه الحديث لمير حسيني، وتطرّقا بالحديث إلى تشكيل وحدة قتالية خاصة بمحافظة سيستان وبلوتشستان، فقال الحاج قاسم سليماني معاتبًا: «كيف لك أن تتحدّث عن تأسيس الوحدة القتالية بينما علينا حلّ مشاكلنا بدايةً».

قال هذا ثم ودّعه وخرج. عاد مير حسيني إلى الغرفة وبسبب مرارة ما سمعت عزفت عن الذهاب وعدت إلى الغرفة فرأيت مير حسيني جالسًا على الأرض يبكي. نظرت إليه بتعجب، فقال وهو يبكي بحرقة:

«لمَ نتصـرف بشـكل يجعل قائـدًا كقاسم سليمـاني، وبسبب التعاطي السلبي لبعض الإخوة، يطلق علينا أحكامًا كهذه؟! لماذا؟».

تأثـرتُ كثـيرًا لحاله، وكي أخرجه ممـا هو فيه قلت لـه: «حسناً يا حاج! سأتولّى تشكيل الكتيبة».

وهكـذا وضعنا اللبنة الأساسية لتشكيل الكتيبـة، لكنني أبدًا لم ولن أنسى حُرقة بكاء مير حسيني في ذلك اليوم، ومدى محبته لقائد الفرقة، الأمر الذي طالما شهدته، فهو كان ينضح بالعشق، العشق فحسب.

الفصل السادس

غـدًا أريـد أن أقرأ وأكتـب عن عمليات «والفجـر 8». آخذ رقم هاتـفٍ مـن جيـب قميصي. الاسـم: محبّ علـي فارسـي. أحملُ سماعة الهاتف وأتصل بالرقم.

«مُحِبّ علي فارسي»، رجل عريض المنكبين طويل القامة بنيّ الشعر. عندما رأيته أول مرة ظننتُ أنّه معلّم، فهو يشبه المعلّمين إلى حدٍّ كبير. عندمـا تحدّثنا أخبرني أنّه كان أستاذًا وذهب إلى الجبهـة مع بداية الحرب، كما شارك في الأنشطة الثوريّة ووقع في الأسر بيد العراقيين سنوات عدّة.

أطلب منه أن يبدأ الكلام، فيسألني: «من أي عمليات أبدأ؟».

– من حيث ترغب.

لم أشأ أن يحصر كلامه في عمليّة محدّدة.

يبدأ الحديث:

كنّـا في عمليات خيبر. هاجمنا العدو مـرات عدّة، لكن هجومه هذه المـرة كان أشرس مـن المرات السابقة، لم يكـن بإمكاننا التحرك تحت وطأة القصف العنيف. سحبني «بودينه» معه من الخطّ الثاني إلى الخطّ الأمامي. كانت القذائف تتساقط من حولنا كحبّات الملبن وسكر النبات

وتنفجـر، فتجبرنا على الانبطاح أرضًا حينًـا وعلى النهوض حينًا آخر، ننظر حيارى يمنة ويسرة، وألسنتنا تلهج بالأذكار وتنطق بالشهادة.

بحثنا عن «مير حسيني» بداية، كان في الخطّ الأمامي، فأشاروا إلى الدشمة حيث هو. دخلنا فتعجّبنا لما شاهدناه منه.

– يا حاج! العراقيون قادمون وأنت تسرّح شعرك؟!

– مـا العيب في ذلـك؟ إذ لم يتغيّر شيء، كمـا إنّ النظام والترتيب يساعدان على إنجاز الأعمال بشكل أفضل.

ثـم طلب مـن «بودينـه» مراقبة سير العمـل والمجريـات، وقال لي: «لننطلق».

انطلقنا نحو الخطوط الخلفية. في الطريق، وجد مكانًا بين القصب. لم أكن أعلم ما ينوي فعله! خلع ملابسه بهدوء وقفز إلى الماء، كان يوم الجمعة وأراد أن يغتسل غسل الجمعة.

بعد ذلـك وبنفس الهدوء، ارتدى ملابسه وسرّح شعره ثم عدنا إلى الخطّ وكأنّنا لسنا في حرب.

في أوقـات الإجازة، كان يهتم بأمور الناس ويزور المقاتلين، أذكر في إحـدى المرات، أننا عدنا من زيارة المقاتلـين والتعبويّين وكانت الساعة 11 ليـلاً. حينها، كان منزله في زابل بالقـرب من منزل والدي، عندما وصلنا استأذنتُ منه للذهاب إلى منزل والدي فأجاب:

– لا! بل سنذهب إلى منزلي لتناول العشاء.

رفضتُ فأصرّ، عندها قلت له:

– أيهـا المنصـف! قضيت مـدّة من الزمـن في الجبهـة، الآن اهتمّ بعائلتك في هذه الأيـام القلائل. على الأقل اهتم بعائلتك لبضعة أيام. لقـد رفضت المجيء معك انطلاقًا من هـذا، وإلا فإنني أتمنى أن أبقى معك طوال الوقت.

– أبلغتُ العائلة أننا سنعود معًا الليلة.

قـال هذا ومشى، ولم يترك لي خيارًا سوى اللحاق به، ما إن التففنا حول الساحة حتى التقينا بسائقي شاحنة نقل بري واقفين قربها، لوّحا لنـا بأيديهمـا فاقتربنا منهما، سألانا عن نُـزلٍ أو مطعم؛ قلنا لهما إنّ جميـع الأماكن مقفلة الآن، كما إنّ عـدد الفنادق والنُزل هنا قليل جدًا لندرة تردّد المسافرين إلى هذه المدينة.

قال مير حسيني لهما: «أقفلا شاحنتكما وتفضّلا إلى منزلي».

رفضـا في البداية، لكن مير حسيني أصرّ قائلًا: «لدينا ما يكفي من الطعام تفضّلا».

أظن أنهمـا كانا جائعين فقبلا الدعـوة. كان العشاء معكرونة. بعد تناول الطعـام، أصرّ «مير حسيني» عليهما للمبيـت عنده، لكنّهما قالا إنّهما لا يستطيعان ترك شاحنتهما، ثم ودّعاه وانصرفا.

هذه هي الروحية التي ميّزت «مير حسيني» عن غيره.

في عمليـات «والفجر 4»، كنتُ أيضًا مع «محمد حسين بودينه»، عند سفح جبال «هركنه» وعلى مسافة من الجمارك، وكان قد اجتمع هناك عدد من قادة الفرقة ليبحثوا بعض القرارات.

عنـد أول وصولنا، سقط صاروخ كاتيوشا عليهم، فاستشهد 9 منهم

وجرح الآخـرون. كان «كازروني وإمام دوست» هنـاك فاستشهدا، كما جـرح بودينه فنقلتـه إلى المستشفـى، واتصلت بـ«مـير حسيني» الذي أعطـاني عنوانه وطلـب منا التحرّك في أسرع وقـت. منذ تلك اللحظة رافقته طوال العمليات.

تقـرّر في المرحلـة الثانية من العمليات أن تحـرّر فرقة «ثار اللّه 41» المرتفعات المشرفة على مدينـة «بنجوين»[1]، فيفتح الفريق الأول طريقًا وسـط الأسلاك الشائكة وحقل الألغام بواسطة طوربيدات بنغلور. فُتح الطريق وتقدّم مير حسيني مع الفريق الثاني.

حرّرنـا التلّ الأوّل، ثمّ صعد رتل الكتيبة إلى الأعلى. كان بحوزة مير حسينـي مكبّر للصوت، فقـال لقائد الكتيبة المشاركـة: «تابعوا التقدّم وحرّروا التلال المحيطة».

لكنّ قائد الكتيبة اختلق عدّة أعذار تهرّبًا من تنفيذ التكليف، عندها قال له «مير حسيني» بلهجة آمرة: «قلت لك تابع المهمة...».

علا صوت القائد مستنكرًا وقال إنّ الأعداء قد كشفوا مكاننا واشتدّ قصفهم علينـا. انبطحنا جميعنا على الأرضـ إلّا «مير حسيني». فقد بقـي منتصبًـا وكأننـا لا نتعرّض لنـيران قصف جهنمـي. حمل مكبّر الصـوت وراح يخطـب بالمقاتلين ويحثّهم على النهوضـ والقتال وعدم التثاقل إلى الأرض إلى حين وصول الأعداء والقضاء علينا فردًا فردًا.

ولأنّ كلامه مطاع، استنهضـ همم المقاتلين وانطلق الرتل للسيطرة علـى التلال الأخـرى. كنت منبطحًـا على الأرض عندمـا ناولني مكبر

1ـ تلفظ: Pengven

الصوت قائلًا: «هيا تابع أنت»، ثم انشغل بالحديث على جهاز اللاسلكي.

نهضتُ من مكاني وبدأت بإطلاق الشعارات الحماسية، ثم تقدّمت إلى الأمام كي يسمع الإخوة في أسفل التل صوتي، بينما كنتُ التفتُ إلى جهة «مير حسيني» انفجر أمامي شيء ما، أصابت شظيةٌ يدي وسقطتُ أرضًا. شعرتُ بدوار ولم أعد أرى مير حسيني الذي تقدّم مع الرتل، بينما عدتُ أنا إلى الخطوط الخلفية ونُقلت إلى المستشفى.

في عمليات «والفجر 8» أيضًا، وقبل ليلتين من بدء العمليات، وصلنا إلى ضفة نهر «أروند». وكنتُ برفقة حميد شفيعي. دخلنا الدشمة فوجدنا الجميع نيامًا، بحثنا لأنفسنا عن زاوية وخلدنا إلى النوم أيضًا. عند أذان الصبح، أيقظني «مير حسيني» وتعانقنا طويلًا. كانت أمنيتي أن ألتقي به، وها قد تحقّقت الأمنية.

تقرّر أن نتوزّع وأن يكون كلٌّ واحد منا بمعيّة قائد من القادة. عرفتُ مسبقًا مع من سأكون. فـ«بودينه» لن يسمح لي أن أكون مع «مير قاسم». وهذا ما كان يحدث في عدد من العمليات التي كنت فيها معه. لكنني، وكالعادة، كنتُ أُمنّي نفسي أن يصاب «بودينه» في بداية المعركة فأتمكن من الالتحاق بـ«مير حسيني» كما حدث في عمليات عدّة.

في اليوم الأول للعمليات، توجّهنا ناحية النهر وقد أصيب «بودينه». هناك، وكما في المرات السابقة أوصلته إلى المستشفى، وعدت سريعًا للالتحاق بـ«مير حسيني»!

في الليلة الثانية للعمليات، تموضعت كتيبة أبناء سيستان في مقدمة رتل الفرقة بأمر من «مير حسيني». وصلت الفرقة إلى تقاطع طرق، إحدى الطرق تتجه نحو منصة الصواريخ، والأخرى نحو خور عبد

الله. كان عنـد التقاطع عدد من دبابات الأعـداء التي ما زالت تقاوم، فاستهدفها مقاتلو الكتيبة، وتابعوا تقدّمهم نحو خور عبد الله.

اتجهنا ناحية الجنود العراقيين عند نهاية الجادة؛ في الليلة الماضية كانـوا قد فرّوا إلى داخل المستنقعات، عندمـا رأونا ظنوا أننا عراقيون مثلهـم، فأسرعوا نحونا مهلّلين مبتهجين، وقد خلع معظمهم ملابسهم عند المستنقع كي يصلوا إلينا سريعًا. عندما وصلوا إلينا كادوا يموتون رعبًا فصاح بعض الإخوة:

– اليوم يوم الانتقام.

ردّ مير حسيني: «لا، اليوم يوم المرحمة».

كأن مشهـد دخول النبي ﷺ إلى مكة المكرمـة يتكرّر اليوم. كان من بين الجنود العراقيين من يجيد اللغة الفارسية فقال: «لا تقتلونا».

تحـدّث «مير حسينـي» إليهم بعطف ولين قائـلًا: «ستتذوّقون اليوم طعم الحرية الحقيقية»، ووعدهم بالبقاء على قيد الحياة.

بعد ذلـك، ركبنا الدراجة النارية وانطلقنا نحـو منصة الصواريخ التـي كانت مليئة بالمعدات والتجهيزات العسكرية. كانت «الكتيبة 419» لا تزال في حالة اشتباك هناك، وتمكنّا عبر التنسيق مع الفرقة العاملة بالقرب منّا من السيطرة على الوضع. خلال تفتيش المنطقة عثرنا على دشمـة مليئة بالأثاث، كان فيها مدفئة نفطية جديدة وطقم من الأواني الصينية الجميلـة. في ذلك الوقت، كان بودينه قد تزوّج حديثًا فقرّرنا أن نهديـه هـذه الأدوات. وهكـذا كان؛ عندما عدنا في إجـازة اشترينا باقـة زهور وحملنا طقم الأواني إلى منزله. صحيح أنّ تلك كانت هدية

زواجه، لكن وبسبب إصابته في بداية كل عملية وتمكّني من مرافقة مير حسيني، خطر في بالي أنه يستحق هذه الهدية أكثر!

نضحك، ثم ينظر إلى ساعته ويقول: «لديّ موعد عند الطبيب فلنتابع في وقت آخر». أوافق ثمّ ينهض وينصرف؛ بينما أعودُ أنا إلى أوراقي. حملتُ مذكرات أحدهم وبدأت القراءة:

كان مير حسيني رجل عبادة وشجاعة.

كانت عمليات «والفجر3». انطلقنا من «دهلران» باتجاه منطقة العمليات، حان موعد أذان الصبح لكنّنا لم نستطع التوقف. كان علينا الوصول إلى المكان المحدّد في أسرع وقت ممكن. في السيارة، كان «مير حسيني» قلقًا من أن يفوتنا وقت الصلاة، فقال: «صلّوا وأنتم على هذه الحال».

نظرنا إليه بدهشة فالسماء ما زالت مظلمة! ثمّ أردف: «إذا وصلنا قبل شروق الشمس سنعيد الصلاة».

مررنا في لحظات حسّاسة جدًا، إذ إنّ العدو كان قد بدأ هجومه وأضحى لكلّ ثانية قيمتها وأهميتها. تجهّزنا للصلاة ونحن على تلك الحال. قال مير حسيني: «لا يهم في أي اتجاه تصلّون».

صلّينا، ويا لها من صلاة، بعضنا صلّى من جلوس وبعضنا الآخر صلّى في حال قرفصاء والسيارة تهزّنا هزًّا عنيفًا ... لكن لن أنسى أبدًا نظرات مير حسيني القلقة.

كان يولي أهمية كبيرة للعبادة والتهجّد. مرة أخرى، كنّا في منطقة «جفير» حيث ستجرى مناورات ليليّة، وكانت الرياح شديدة البرودة. كان

الإخـوة يركضون في كلّ اتجاه ووقع أقدامهم يتردّد في كل أنحاء السهل. كمنّا في المتاريس بانتظار بدء تحرّك كتائب العدو في الجهة المقابلة حيث من المقرّر أن يهاجمونا من الجهة المقابلة فنطلق النار عليهم.

وزّعنـا مـير حسيني في مواجهـة جناحي القـوات المهاجمة، وكانت الدوشـكا مجهّزة للإطلاق. حمل التعبويون القابعون في الجهة المقابلة العتـاد معهم أيضًا. كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا وكنت أشعر بالنعاس. رأيت «مير حسينـي» متّجهًا نحو سيارة الإسعاف التي ستقلّ الجرحـى المرجّح إصابتهـم في المعركة، ولا أدري ما الـذي ينوي فعله. نهضت وذهبت نحوه وتفاجأت عندما رأيته واقفًا يؤدّي صلاة الليل. لم أتصـوّر أنّه في ظلّ هذه الأوضاع والتعب وحركة القوات سيفكّر بصلاة الليل. حقيقةً، كان أمرًا لا يصدّق.

كانت ليلة عمليات «والفجـر 8»، اقتحم الغواصون الخطّ على ضفة نهر «أروند»، وحان دور المشاة في الهجوم. أمر قائد الفرقة مير حسيني بالانطـلاق نحـو الضفة الأخرى حيـث كانت القوات لا تـزال مشتبكة، وأمكن معرفة ذلك من خلال غزارة تبادل إطلاق النار بين الطرفين.

ركبنا الزوارق وانطلقنا. أقولها وبكل جرأة، كان زورق «مير حسيني» أول زورق رسـا على الضفـة الأخرى. نزلنا من الـزورق وانتشرنا. بدا مـير حسيني وكأنّه يتنقل في أزقة مدينة زابل. أدهشني تقدّمه من دون خوف أو وجل رغم خطورة الأوضاع. أحسستُ أنّه يعرف المنطقة تمامًا لكـثرة ما رسم خريطتهـا وحدّدها على المخطّـط، وكان في ذلك الليل الحالك يختار الطرقات بسهولة ويتوغّل مع قواته فيها.

الطريـف في تلك الليلة، هتافات مـير حسيني التي ضاعفت قوة كلّ

تعبوي سمعها أضعافًا مضاعفة.

كان بموازاة الضفة مدفع رشاش لا يسكت أبدًا، حتى إنّ مير حسيني دنا منه مرتين من دون أن يتمكّن من إسكاته، وشكّل خطرًا على خاصرة قواتنا. قرابة الصباح، استدعى جميع رماة الـ«آر بي جي». عندما حضروا التفت نحوي وقال: «عندما أطلق أول قذيفة «آر بي جي»، اطلب من الجميع إطلاق قذائفهم في وقت واحد».

تموضعنا وتجهّزنا. كنت أحملق في الظلام عندما لمع نور «آر بي جي» مير حسيني وانطلاق قذيفته، حينها صرخت: «الآن!».

أُطلقت القذائف معًا فسكت الرشاش وهاجمنا الدشمة. هكذا وبسهولة أمنّا طرق عبور قوات الفرقة، ثم سمعت صوت مير حسيني يصرخ في الظلام: «تقدّموا!».

انطلقت القوات وكانت معركة طاحنة.

كلّ من تحدث وكتب عن عمليات «والفجر 8»، لم يستطع تجاهل هتافات وحديث وصيحات مير حسيني التي شكّلت نقطة مشتركة بين جميع المذكّرات.

روى «علي زارعي» الحادثة من زاوية أخرى:

أضحت مدينة سبنتا[1] أكثر صخبًا من المعتاد، فقد عجّت بمقاتلي الحرس الثوري من فرقة «النبي محمد ﷺ» المتطوّعة من محافظات كرمان، سيستان وبلوتشستان. كان قادة الكتائب يأتون لاستلام ما ينقصهم من عديد ثمّ ينصرفون. في كل زاوية تقف مجموعة من

1- spenta.

المقاتلـين بانتظام؛ إما يتحدث قائدهم إليهم أو يسيرون في طابور نحو الحافلات.

عنـد العصـر، كان ما زال في المـكان عدد كبير من القـوات. كانوا يقولـون نحن قوات دعم وإسنـاد ولم يرغبوا في الانضمـام إلى كتائب الهجـوم. احتار القادة في أمرهـم، إذ لم تكن فرق الإسناد بحاجة إلى هذا العدد من المقاتلين. لقد اختار قادة الإسناد حاجتهم من العناصر ورغم ذلك بقي الكثير منهم.

بعـد حوالي 4 أيام، وصل مير حسيني عند الساعة 9 أو 10 صباحًا. جمعَ العناصرَ في الساحة، وقف قبالتهم وبدأ خطابه قائلًا: «نحن ورثة الأنبياء والذاكرون لجهادهم. والكلم الطيب إذا ما جرى على ألسنتنا، نحن أبناء الإسلام، فهو ببركة الشهادة المغمّسة بدماء شهداء كربلاء. وإذا ما نظرنا إلى خنادق القتل فسنرى وجوه شهداء تتلو القرآن قدّموا أنفسهـم قرابين، ونـرى أقدامًا قد تقرّحت متنقلة مـن مكان إلى آخر مقتفيـةً أثر قائدهـا. لقد رفعنا رايـة الالتزام بالديـن وشفاهنا تلهج بذكر الشهادة، سائرون في أثر القافلة...».

تحـدّث مير حسيني حوالي ساعة مـن الوقت ثم ودّعهم وانصرف، لكـنّ كلماته تركت أكـبر الأثر في صفوف العناصر لدرجة لم نعد نسمع من يقول إنّني جئت لأكون في فرقة الإسناد وحسب.

بعد الظهـر، توزّعتْ جميع القوات على الوحـدات والكتائب، وخلتْ قريـة سبنتا مـن أي عنصـر. كانـت القوات تنتظـر العمليـات بفارغ الصـبر، وجميع مقرّات الكتائب تصدح بالدعـاء وتشعّ بالأنوار. رأيتُ مـير حسيني لعـدّة ليالٍ يبتعـد عن الجمـوع، فانتابنـي الفضول. كان

يذهــب إلى آخر مقرّ الكتيبة حيث يخيّم الظلام والسكون. في البداية، اعتقدت أنه يتفقّد المخيم، لكن لمَ كلّ ليلة؟! وهكذا قررت تعقّبه.

بــدأت بمراقبتــه مــن أول الليل إلى أن حــان وقت ذهابــه. سار في عتمة الليل إلى حيث خشعت الأصوات في المخيم ولم يعد من شيء غير الظــلام الدامس. تملّكني شعور عجيب وأنا أراقبه، مزيج بين الفضول والخوف. توقّف، وبالكاد كنتُ أرى شبحه. أضعته للحظة. بقيتُ حائرًا مذهــولًا لا أدري أيــن اختفى. نظــرتُ بدقة في الأرجــاء وتقدّمت قليلًا فتناهــى إليّ صــوت مناجاة ضعيــف. تسمّرت في مــكاني مصغيًا. كان صوتــه! تقدّمت قليلًا، كان يبكي ويتوسّل بحرقــة تلهب الفؤاد. كان قد حفــر في الأرض حفرة بحجم القــبر، ونزل إليها يدعو خالقه ويناجيه. لم أطق البقاء وعدت أدراجي بهدوء.

صباح ذلك اليوم، وأنا أمرّ بالقرب من نهر كارون وقعت عيناي على مير حسينــي. كان يسبح في النهر وقد تقطعت أنفاسه من شدّة البرد. حرفــت طريقي ودنوت منه. شعرت ببرد أكبر عندما رأيته. اقترب من الضفة سلّم عليّ ثمّ استعان بالأعشاب الجافة على ضفة النهر للخروج من الماء. كان بدنه يرتجف كأوراق شجرة الصفصاف من شدة البرد. سألته بدهشة: «لمَ تسبح في مثل هذا البرد القارس يا حاج؟!».

أجــاب وهــو يبتســم: «مــن المقــرّر أن تتــدرّب الكتائب اليــوم على السباحــة، فأردت أن أختبر المياه وأشعر ببرودتهــا قبل أن نرسل أولاد الناس إليها».

لم أقل شيئًا، أعني لم أكن أملك ما أقوله. كل حركة من حركات مير حسيني عالم من العبر.

أمّـا في عمليـات «والفجر 8»، فقد شاركت الكتيبــة 422 مع سريّتين في العمليـات. تعيّن على هذه الكتيبة الانطـلاق خلف الكتائب الأخرى. كانت المعارك ضارية، ولم تسكت أجهزة اللاسلكي لحظة واحدة.

بعـد ساعة، وصلـت الكتائب إلى النقاط المحـدّدة لها، وبذلك حان دور انطـلاق الكتيبة 422[1]. كان الجميع بانتظـار نتائج المعارك عندما وصـل الخبر أنّ دبابة الأعداء قد سـدّت طريق قواتنا وشلّت حركتهم، أعلن قائد الكتيبة أنّه غير قادر على التقدّم بقواته.

كنّـا في مقـرّ الفرقة فقال مـير حسيني: «جهز الدراجـة النارية يا علي». وضع حزام مسدسه، حمل مكبّر الصوت بيده وركب الدراجة.

سألته: «إلى أين يا حاج؟».

- لقد تعثّرت الكتيبة، سأساعدها على النهوض.

قـال هذا وانصرف. فيمـا بعد، حدّثني أحـد العناصر الذين كانوا في الكتيبـة 422 بمـا جرى: «كنا جميعنا منبطحـين أرضًا عندما وصل مير حسيني، وكانت الرشاشات تزرع المكان بالرصاص لكنه لم ينبطح، ركـن الدراجة جانبًا وراح يبثّ الحماسة فينا. لقد استنهض أسلوبه في الـكلام جميع العناصـر المنبطحة قرب الساتر الترابـي من أماكنهم، وتقدّمـوا كأنّ جيشًا قدم لإسنادهم. تقدّمنـا مكبّرين بأعلى الأصوات وهاجمنـا دبابة الأعداء، وقد لاذ البعض بالفرار، وتمكّنت هذه الكتيبة من أسر 600 جندي عراقي».

بعـد العمليات رجعنـا إلى «الموقع الصاروخي» للعـدو في الفاو. وقد

1- بقيادة الشهيد فروخي.

أمضينا بضعة أيام صعبة والجميع لجأوا إلى الخنادق منهكين متعبين.

عنـد غـروب ذلك اليـوم، حضر الجميـع للصلاة، وقفنـا للصلاة بملابسنا المغفّرة بالتراب والدماء بإمامة مير حسيني. بعدها قرأ مير حسيني الدعاء. ثمّ ارتمى الجميع على أرض الدشمة واستسلموا للنوم بعـد تعب شديـد وسهر لأيام متتالية. وجدت لنفسـي زاوية في الدشمة فتمدّدت على الأرض و خلال لحظات غططتُ في نوم عميق.

استيقظتُ على صوت أحد الإخوة، نهضت بسرعة ونظرت في أرجاء الدشمـة. فوجـدتُ مائدة طعام قـد مدّت وسط الدشمـة وتوزّع حولها الإخوة المتعبون النائمون. كان مير حسيني عند مدخل الدشمة. نظرت إليه بتمعّن فرأيته يسكب الطعام والماء ويضعهما على المائدة. استيقظ الإخوة الواحد تلو الآخر. شعرنا جميعنا بالخجل؛ لقد جهّز مير حسيني كل شيء بمفرده. في الحقيقة، خجلتُ في تلك الليلة من النظر في وجهه حتى الانتهاء من تناول العشاء.

في يـوم من تلك الأيام، ذهبنا معًا علـى الدراجة النارية إلى الفاو، كان هو السائق. في الطريق توقف وسط الصحراء فظننت أن الدراجة قـد تعطّلـت. ترجّلنا عنهـا وركنها جانبًا، ثـم جلس علـى الأرض إلى جانبهـا في اتجاه القبلـة وأخرج كتاب الدعاء من جيبـه وبدأ القراءة. دُهشتُ من فعله هذا، بعد أن نهض سألته:

- ماذا حدث يا حاج؟ لِمَ توقفت فجأة؟

أجابني وهو يركب الدراجة ويضرب على دواسة الوقود:

- تذكّرتُ أنني لم أقرأ دعاء اليوم بعد.

ثـم ركبنا الدراجـة ثانية وتابعنـا الطريق.. ما زالـت تلك الحادثة راسخة في ذهني.

سابقًـا سمعتُ باسم «عبـد الحسن طاهري»، لكن لا أذكر أين. كتب في السطر الأول عن الدرس و الجامعة. تذكرت! نعم سمعت باسمه عندما ذهبت للقاء حسين بور إسماعيل في كلية الزراعة، إنه رئيس كلية الزراعة:

كنـتُ طالبًـا في طهران وتقرّر أن نذهب في رحلـة علمية مع أساتذة سيستان وبلوتشستان. ذهبنا نحو جنوب البلاد، وفي الطريق أعلن بدء عمليات «والفجر 8». في تلك اللحظة طار ذهني إلى مير حسيني. حين وصلنـا إلى الأهـواز في الصبـاح، انفصلت عن المجموعـة لأذهب إلى الفاو. كان شوقي للقاء مير حسيني كبيرًا جدًا لدرجة أني ما فكرت في أننـي أستطيع الوصول إلى هنـاك أم لا؛ ناهيك عن التمكّن من رؤيته. انطلقت ولا أدري إلى أين يجب أن أذهب. انقضى يوم حتى وصلت إلى آبـادان وعبرت نهر «أروند». يا لهذا الصخـب! كانت القوات تتجه إلى هنـاك، وطائرات الأعـداء لا تغادر الأجواء لحظة واحـدة. سألتُ هذا وذاك إلى أن وصلت إلى مقر الفرقة. لم أصدّق أنني وصلت. أخبروني أنّ مـير حسيني في الدشمة، وقفت لدى الباب وناديته فأجابني صوت: «الحاج مير حسيني نائم».

ناديتـه ثانية بصوت أعلى، فسمعتُ صوته ورأيته عند المدخل خلال لحظات. كـدتُ أبكي من فرحة اللقـاء. تعانقنا ودخلنـا الدشمة. كان «محبّ علي فارسي» في الداخل أيضًا. قلتُ:

- لقد تأخرت في الوصول للمشاركة في العمليات.

- لم تتأخر كثيرًا.

بقيت الليل هناك، وفي الصباح ركبنا الدراجة باتجاه الخطّ الأمامي. كان العراقيون يقصفون المنطقة باستمرار، بينما راح مير حسيني يبحث عن موقع مناسب للمقر التكتيكي للفرقة. وصلنا إلى عدة متاريس بُني سقفها على شكل قوس من أعجاز النخل. نزلنا من على الدراجة وصرنا نطل على الدشم والمتاريس، أعجبه المكان وأرادوا تجهيز اللاسلكي عندما علا صوت من فوق السقف: «عراقي... عراقي... ناولني قنبلة».

هالني الخوف، وللحظة لم أدرِ ما يحدث! صعد مير حسيني السقف وأمسك بالعراقي وأنزله. مع أنه مضى 3 أيام على انتهاء العمليات؛ إلا أنّ العراقي بقي مختبئًا لينجو بنفسه. كان خائفًا فنظر إليه مير حسيني وقال: «يكاد المسكين أن يموت أعطوه طعامًا».

لقد عامل مير حسيني الأسير بعطف بالغ وقد راقني ذلك. عندما شبع الأسير أرسلناه إلى الخطوط الخلفية. ذهبنا إلى الخطّ الأمامي، جال مير حسيني في مرصد العراقيين، فجأة انفجر ضاحكًا. لقد شاهد «بختياري» قادمًا نحونا، وهو من أبناء كرمان، قال مير حسيني له: «ما هذا المظهر؟».

لم يكن ينتعل حذاءه العسكري، كما كان سرواله فضفاضًا من دون حزام، فيسقط عن خصره باستمرار. أجاب بختياري وببساطته المعهودة: «كان أحد الإخوة بحاجة إلى حذاء فأعطيته حذائي، وأعطيتُ الحزامَ لآخر...».

عدنا إلى الخطوط الخلفية. وكان عليّ العودة إلى مدينتي فودّعته وانصرفت.

انتهت رحلتي التي استمرت يومين إلى الجبهة والعمليات، لكن ذاكرتي ما زالت ملأى بأحداثها ومشاهدها حتى اليوم؛ خاصة بساطة وتواضع الشهيد «بختياري».

عمّت الفوضى الغرفة. أُبعثُر الأوراق المكدّسة حولي عدة مرات في اليوم؛ وأعود لتوضيبها. لقد غرقت وسط 6 آلاف ورقة. أحملُ مدوّنة أخرى وأبدأ القراءة. كانت لـ«منصور هاشمي»:

حاصرنا العراقيون فرحتُ أردّد منذ الصباح وأقول عبر جهاز اللاسلكي: «أرسلوا إلينا الدعم، أرسلوا المقاتلين، أرسلوا الذخائر، الذخائر!». فجأة رأيتُ أحدهم منتصبًا أمامي. رفعت رأسي، كان مير حسيني نفسه. نظرتُ إليه مدهوشًا. جلس، أخذ سماعة اللاسلكي مني بهدوء وقال بالشيفرة[*1] : «وصل الدعم ولدينا ما يكفي من الذخائر فلا ترسلوا شيئًا».

نهضت من مكاني مسرورًا ونظرت إلى ما حولي. كان مير حسيني بمفرده ولا أثر لقوات الدعم أو الذخائر. حدّقت به مليًا فهدأ فؤادي. لا أدري لماذا! لكنني شعرتُ بالأمان، كأنّ مئات الكتائب قد وصلت لنصرتنا. نهضت وركضت إلى الجهة الأخرى. رأيت عامل إشارة آخر، كان منذ دقائق يطلب الدعم والمساعدة، قد نهض وهو يقول عبر جهاز اللاسلكي: «لا ترسلوا أي شيء فقد وصل كلّ ما نحتاجه».

كان الجميع قد هدأ عند وصوله وكأنه بعث السكينة فيهم واستنهض همم التعبويين فأمطروا الأعداء بكلّ ما في حوزتهم من رصاص وقذائف، بينما عامل الإشارة راح يردّد عبر أجهزة اللاسلكي:

1* – تحدّث طبقًا للائحة المرمزة حتى لا ينكشف الحديث للعدو.

«لا ترسلوا الذخائر، لا ترسلوا الآليات، فلدينا ما يكفي لمدة أسبوع...».

وضعت العمليـات أوزارها وكتبت الغلبة لنا. فجأة جاء مير حسيني إليّ وقال:

– لم قلت ما قلت عبر اللاسلكي؟ لمَ تعثّرت؟ عندما تجبُن يستشرسُ عدوّك ويهاجمُك. يجب أن تقول عبر جهاز اللاسلكي، لسنا بحاجة إلى عناصر، لدينا ما يكفي من الذخائر، لسنا بحاجة لأي شيء. هل غفلت عن التوكل على الله؟!

طأطأنا رؤوسنا خجلًا، في الحقيقة لم يكن لدينا ما نقوله.

مـرة أخرى كنت عائدًا مـن العمليات وقد استشهد عدد من الرفاق وجُرح آخـرون. غصةٌ أثقلتْ صدري فراحت تتحـيّن الفرصة المناسبة لتنفجـر وتخرج منـه فتغسل الدموع فؤادي المكلـوم لينجلي من جديد، ولا فرصـة أفضـل مـن دعـاء التوسـل. لا أدري كيف مـرّ الوقت، فقد طـال الدعاء قرابة ثلاث ساعات. عـدتُ إلى خيمتي، بعد وقت قصير استدعـوني مـن خيمة القيـادة. ذهبـت ورأيت «مير حسينـي» هناك. سررت كثيرًا، سلّمتُ وجلسـتُ بالقرب منه. كان منزعجًا، سألت قائد الكتيبة عن سبب انزعاجه فقال: «اسأله بنفسك!».

عندها نطق «مير حسيني» وقال:

– كيـف لي أن لا أنزعـج. متـى وأين رأيـت أن دعـاء التوسل يمتدّ لثـلاث ساعـات؟ لمَ تقوم بما يجعـل المقاتلين يفرّون مـن المشاركة في مراسم الدعاء؟

صمتَ قليلًا ثم تابع:

– لـو أنّك لم تكن منهكًا من البـكاء لأمرتك بالزحف حتى الصباح عقابًا لك.

ثم التفت إلى الآخرين وقال:

– يجـب أن لا يتحـوّل التوسّـل بـ14 معصومًا إلى 14 قـراءة؛ حتى لا نسمـع أحدهـم يقـول بعد انتهاء الدعـاء: «الحمد لله هـا قد انتهى وارتحنا!».

أيضًا لم أستطع قول شيء فبقيتُ صامتًا.

أقوم؛ فلم أعد أستطيع تحمّل هذه الغرفة الغارقة بالفوضى. أرتب الأوراق في مجموعات واضعًا بعضها فوق بعض.

فرغـت القارورة(FLASK) من الشاي. تقع عيناي على ورقة أخـرى. المكان يضج بالذكريات. كان «علي كيخا» أيضًا، أنا أملك كنزًا:

كان اليـوم السابـع لعمليات «والفجـر 8»، استعـدّ العراقيون للقيام بهجـوم مضاد كبـير لاستعـادة المناطق التـي سيطرنا عليهـا. كنّا قد تموضعنا في «مصنع الملح»، وقد تولّى وزير الدفاع العراقي عدنان خير الله بنفسه قيادة الهجوم المضاد في تلك المنطقة.

كان الوقـت ظهرًا والعراقيون يقصفون خطوط إمدادنا بلا انقطاع. كانت أشعـة الشمس الحارقة تسطـع على رؤوسنا، وقـد أزكمت أنوفنا رائحـة الأرض الملحيـة النتنة. وقـد منع القصـف العراقـي المتواصل والشديد وصول الماء والطعام إلينا. كان الإخوة يصدّون الأعداء بالروح والقلب، وإلا فلن تستطيع الأسلحة «المادية» فعل شيء أمام هذا الهجوم.

كنت على الساتر الترابي عندما سمعت صوتًا. التفتُّ بسرعة إلى ناحية الصوت، كان مير حسيني أسفل الساتر يردّد الشعارات والهتافات الحماسية. لم أصدّق أن نائب قائد الفرقة يأتي إلى الخطّ في مثل هذا الوضع.

خلال دقائق علم الجميع بوجود مير حسيني. حتى لو كنت هناك لن تصدق ما تراه عيناك! لقد ارتفعت معنويات المقاتلين لدرجة أنهم تسلقوا الساتر الترابي من دون أي وجل، وصبّوا نيرانهم على الأعداء. ما زال صوته يتردد في أذني إلى الآن. كان مير حسيني يصرخ:

– يا الله! هيا تسلقوا الساتر الترابي، فقد جاء وزير دفاعهم اليوم ليشارك في المعارك. يجب أن نمرّغ أنوفهم بالتراب...

كان المقاتلون يطلقون النار من دون توقف، ومير حسيني ينشر الحماسة فيهم بهتافاته وأشعاره، حتى إنّ بعض الفتية أرادوا الذهاب إلى قلب الدبابات العراقية قائلين إنّهم سيشدّون وزير الدفاع العراقي من أذنه ويحضرونه إلى هنا. قال أحدهم:

– ما هي جائزتي يا حاج إذا ما أحضرت لك عدنان خير الله؟

– أنت أحضره أولًا وسأدعو لك بالشهادة!

في اليوم السابع للهجوم العراقي، مُرّغ أنف البعثيين بالتراب بفضل قيادة مير حسيني.

كتب «علي نجيب زاده» الذي تعرّفت إليه في اليوم الأول، عن عمليات «والفجر 3»، وكيف تعرّف إلى مير حسيني في أحد الخنادق. ما أكملت قراءة باقي مذكراته؛ وكنت وضعتها جانبًا

لأعود إليها في الوقت المناسب. أتناول المذكرات وأبدأ القراءة:

وسط العمليات، وصل مير حسيني وحسامي على دراجة نارية. كان الأعـداء يتقدمون خطوة خطـوة. تسلّق الاثنان الساتـر الترابي وراحا يستطلعـان قوات العدو ودباباتـه. كان القصف العراقـي شديدًا، وقد تساقطت مختلـف أنواع القنابل والقذائف والهـاون. انفجرت إحداها بالقرب من مير حسيني، وفي لحظة رأيت التراب حيث يجلس يتناثر في الهـواء، وكذلك الرصاص المتساقط من حوله كان ينثر الغبار والتراب في الهواء.

لم أعـد أطيق صبرًا، أسرعت نحوه وأمسكته من يديه وأجبرته على النزول أسفل الساتر وقلت له بصوت عالٍ:

– مـا الـذي أتـى بك في هـذا الوقت، وبمـا أنك جئت فمـا الداعي لتسلُّقك الساتر...

ضحك مير حسيني، وربّت على جبهتي ثم قال:

– لا تقلق عليّ.

مـرّة أخـرى، عـاد إلى مكانـه في أعلـى الساتـر. وقد اشتـدّ أزيز الرصاص وراح ينهمر مـن حوله، لكنه تابع مراقبة تحرك الأعداء من دون اكـتراث. لم أستطـع التحمل أكثر، فأمسكـت بقدمه وسحبته إلى الأسفل. عندما نهض مسح على وجهي وقال:

– أخ نجيـب! قلت لـك لا تقلق. لن يصيبني مكروه، فأنا أعرف متى سيحدث ذلك. والآن، هل ستدعُني أكمل عملي أم لا؟!

في ذلـك اليوم، وما دام «مـير حسيني» يقف أعلـى الساتر الترابي

جوهرة هامون

وإلى أن نزل وذهب، شعرت أنني متّ وعدت للحياة مئة مرّة. إذ لم يكن لدينا غير مير حسيني واحدٍ وفرقة ثار الله واحدة!

بعد معارك ضارية، تموضعنا على الضفة الأخرى لنهر «أروند». مرّت أيام عصيبة علينا في معارك بحيرة الملح. كانت القوات منهكة، فدخلنا أحد مباني ثكنة «قشلة» العراقية وارتمينا على الأرض كالأموات، وكل واحد أخذ زاوية ليستريح فيها، حتى إنّنا لم نستطع تناول العصير الذي أعدّوه لأجلنا.

عند العصر، كنت مع «محمود كاظم زاده». قلت له: «هيا نصلّي ثم ننام». لم يستطع فتح جفنيه جيدًا. توضأنا ووقف هو للصلاة. هوى للسجود ولم يقم. وضعت يدي على كتفه فهوى أرضًا. كان النعاس قد غلبه. نهض ثانية توضأ ثم وقف للصلاة. كان يترنّح في كل اتجاه من شدّة التعب وشفتاه تتمتمان بالصلاة، وكالمرة السابقة هوى للسجود ولم يقم، ثم ذهب ثالثة ليتوضأ. لقد أحصيت له 24 وضوءًا، لكنه في كل مرة كان ينام قبل أن يتمّ الصلاة.

بعد حوالي الساعة، جاء مير حسيني فهبّ المقاتلون كسلك مطاطي وتجمعوا؛ وقف أمامنا وبدأ يحدثنا عن الجهاد ومشاق الحرب وقلّة العديد، ثم طلب أن نستعد للذهاب إلى الخطّ الأمامي. عندما أنهى مير حسيني كلامه، جلس كاظم زاده وقد ضمّ ركبتيه وقال بهدوء: «انهض لنحضّر أغراضنا ونذهب إلى الخطّ الأمامي».

نهضنا معًا، كانت عينا محمود كاظم زاده[1] شديدتي الاحمرار. جهّزنا السلاح والعتاد.

1– بعد مدة صافح كاظم زاده مير حسيني في الجنة.

بعـد العمليـات عدنا إلى الخطـوط الخلفية للحصـول على إجازة. كانـت في حوزتنا سيارة إسعاف. وصلنـا ليلًا إلى مدينة «بهبهان» وكنا متعبـين جدًا. ذهبنـا إلى مقر الحرس، كنت أعـرف أنهم لن يسمحوا لنا بالدخول فخطرت ببالي فكرة. أسرعت نحو مدخل نقطة الحراسة ودست على الفرامل بقوة. تقدّم الحارس مني، فقلت له: «الإخوة معي».

فتح الباب ودخلنا. سُررنا كثيرًا لأننا تمكّنا بهذه الحيلة من الدخول إلى مقـر الحرس الثـوري. ركنّا السيارة جانبًـا وبحثنا عن المسجد أو المصلّى فأرشدونا إليه. توضّأنا وجاء الحارس إلى مير حسيني وسأله:

– يا أخي! لأي كتيبة أو وحدة تنتمون؟

– فرقة ثار الله 41.

– يجب أن تغادروا إذًا.

– سأله مير حسيني بتعجّب: لماذا؟

– لأنـه عليكم الذهاب إلى مقر التعبئة للاستراحة والصلاة. ولأن السائق قال إنّ الإخوة معه فاعتقدت أنكم من عناصر الحرس لدينا.

ما إن سمع مير حسيني هذا حتى نظر إلينا وقال:

– هيا يجب أن نخرج من هنا.

قلـت: لكن ما الفرق يا حـاج سواء ذهبنا إلى مقـر التعبئة أو بقينا هنا، فنحن أيضًا مقاتلون.

– الأوامر والنظام تقتضي ذلك.

– إذًا دعنا نصلّي أولًا.

– لا، لا يسمح لنا بذلك، فلا فائدة لصلاتنا هنا.

خرجنا وقال لي مير حسيني معاتبًا:

– مـا كان عليك خداع الحارس، اللّه يعلم إن كنت كذبت عليه. لِم تفوّهت بهذا الكلام؟ حاول أن تكون صادقًا في جميع أعمالك.

– ثم تابع بلطف وعطف: هاك نصيحتي، لا تدع الغرور يتغلب عليك.

حـوالي منتصـف الليل، وصلنا إلى كرمان. كان مـير حسيني نائمًا عندما ذهبنـا إلى محطة الوقود لنتزوّد بالبنزيـن. جاء المسؤول وقال إنّه لا يبيع البنزين من دون البطاقة التموينية الخاصة.

ولكـي نحصل علـى بنزين، بـدأ السائق بالتلاعـب ومحاولة خداع المسـؤول مدّعيًـا أننـا ننقل جريحًـا. استيقظ مير حسينـي فجأة على صـوت مسؤول المحطة يقول: «سأعطيكم 15 ليترًا فقط كي تتمكّنوا من الوصـول إلى المحطـة التاليـة، ولا يمكنني بيع أكثر مـن ذلك من دون البطاقة.

– سأل مير حسيني: ماذا يجري؟

– أجاب السائق: لا شيء يا حاج عد للنوم.

عدّل مير حسيني من جلسته وقال: «لا أشعر بالنعاس فلِم أنام؟».

شرحـت له ما يجري، فترجّل من السيارة وهـو يقول للسائق: «لقد كذبت». لا أدري لمَ كان جسمه يرتجف، قال لمسؤول المحطة:

– يـا سيد، لقد كذب عليـك. أعتذر منك، فلا جريح معنا، وسننفذ المطلوب حسب المقررات والنظام.

أُجبرنا على البقاء ليلًا هناك. عند الصباح، سألتُ مسؤول المحطة عن السبيل للحصول على المحروقات فقال: «اذهبوا إلى مركز المحافظة واحصلوا على رسالة خاصة».

أقرضنا 4 ليترات بنزين لنصل إلى هناك. ذهبنا للحصول على الرسالة ثم عدنا إلى المحطة. بقي تصرّف مير حسيني تلك الليلة حلقة في أذني على الدوام.

توجد على أوراق المذكرات المكدسة والعائدة لعمليات «والفجر8»، مذكرتان أخريان لم أقرأهما بعد. أنهض وأشعل المدفأة النفطية وأضع إبريق الماء عليها، ثم أعود إلى المذكرات لأقرأ إحداها، ريثما يسخن الماء. كانت مذكرات يحيى شيخ ويسى:

أردت الذهاب إلى الخطّ الأمامي حيث كنا نهاجم منطقة الفاو. رآنا بور خسروي فكتب رسالة إلى «غلام حسين شهرياري» وطلب منا أن نوصلها له. قلت:

– للوصول إلى دشمة شهرياري، علينا عبور مثلث طرق الشهادة، وهناك شرط لإعطائه الرسالة!

– أي شرط؟

– أن أصفعه صفعة عن كل كلمة كتبتها.

– ضحك وقال: حسنًا، موافق.

وصلت إلى الخطّ وذهبت مباشرة إلى دشمة القيادة. رأيت مير حسيني، بعد السلام والتحية سألته:

– أين شهرياري؟

- الآن يأتي.

عندما جاء أخبرته بأمر الرسالة والشرط. ضحك وقال:

- حسنًا، لكن نفّذ الحكم غدًا صباحًا.

لم أقبل وصرنا نتجادل، فسألنا مير حسيني عن الأمر. أخبرته بأمر الرسالة والشرط فقال:

- أنا أضمن لك حضور شهرياري في الصباح، فهل توافق؟

وافقت حينها وأعطيته الرسالة. في الصباح، عند الساعة 8 ذهبتُ في مهمة وبعد عودتي توجهت مباشرة إلى مير حسيني الذي سألني:

- تريد تنفيذ الحكم صحيح؟!

- أجل، وأين شهرياري الآن؟

فجأة رأيت الدموع تفيض من عينيه. سألته:

- ماذا جرى يا حاج؟

- نُقل إلى الخطوط الخلفية.

- سألته بلهفة: هل جُرح؟

- لا!

طأطأ رأسه، فتسمّرت في مكاني ولفّني الحزن. قال مير حسيني:

- كان أول شخص أضمنه، لذا يمكنك أن تنفّذ الحكم بي.

انفجرتُ بالبكاء وخرجت من الدشمة.

كان «غـلام عباس كاووسـي»[1] صغير السـن في ذلك الوقت، أقرأ السطر الاول من كتابته فأدرك ذلك:

تطوّعت للجبهة عام 1985م. كنت صغير الجسم، قالوا لي يجب أن أعود، لكنّني أصررتُ كثيرًا، فوافقوا في النهاية على بقائي.

في أحـد الأيـام، أراد مـير حسينـي الذهـاب إلى الخـطّ الأمامي، ورافقته بصفتي عامـل إشارة. كانت هذه المرة الأولى التي أذهب فيها إلى الخطـوط الأمامية. كانـت القنابل والقذائـف تتساقط من حولنا فأجبرتُ على الزحف بين الحين والآخر. لكن مير حسيني لم يكن حتى ليحني رأسه، بل بقي منتصبًا وكأننا لسنا في ساحة حرب.

تقدّمنـا قليـلًا، كان الخـطّ قد حُـرّر حديثًا. أصرّ مـير قاسم مير حسيني على بقائي في أحد المتاريس وأن لا أتقدّم أكثر، فرفضت.

في الأمام، لا أدري بالتحديد ماذا حدث، هل انفجر مخزن الذخيرة أم انفجرت قذيفة! فقد أصابت قطعة إسمنتية كبيرة خاصرتي وسقطت أرضًـا وغبت عن الوعي. بعدها أخبرني الإخـوة بما جرى، أدرك مير حسينـي أن فقـداني للوعي ناتج عـن الخوف وليس عـن الضربة التي تلقيتهـا، فضحك ورشّ الماء على وجهي لأستعيـد وعيي. يومها ضمّني إليـه وسار بي بهدوء وهو يواسيني بكلامه الإلهي. رويدًا رويدًا، شعرت أن ألم خاصرتي قد خفّ.

بعـد تلـك الحادثـة لم يصطحبني معـه أبـدًا. طالما رغبـت في أن يأخذني معه، لكن...

1 ـ تلفظ: كافوسي.

كان المـاء يغلي في الإبريق، آخذه وأفرغـه في محفظة المياه الساخنـة، لكـنّ ذهنـي كان مشغولاً بـ«مـير حسينـي». بحسب البرنامج سأبقى هنا ثلاثة أيام أخرى، خلالها ينبغي أن أكتشف زوايا حياته الخفية. أعود وسط الأوراق المكدّسة التي أصبحت كلّ حياتـي لأستخـرج وأستشـفّ مـن كلماتها صـورةً لـ«رجل» أرسمه على تراب هذا الوطن لليوم والغد وإلى الأبد.

الفصل السابع

انتهت عمليات «والفجر8» وأيام الفاو، بحيرة الملح، جادّة أمّ القصر، مثلث طرق الشهادة، نهر أروند وغيرها من الأيام المعروفة عند أهل السماء أكثر منها عند أهل الأرض، تمامًا كرجالها الرجال.

أنتقلُ إلى ملف عمليات «كربلاء1»، إلى تلك الديار التي وطئتها قدما مير حسيني وقاتل فيها؛ فقد قاتل مرّة أخرى في عمليات «والفجر3»، ودارت عجلة الأقدار لتعود به إلى تلك الديار ثانية، وتحلّقت معه أفكاري إلى هناك.

أخطو في هذه الديار المألوفة، وأرافق رجالًا شهدوا جهاد مير حسيني عن كثب. وأولهم حبيب شهركي:

في نيسان 1986م، وبعد مضي ثلاثة أشهر على عمليات «والفجر8» القاسية والشاقة، عدنا جميعًا في إجازة إلى الديار؛ قادة وعناصر. ولم يبقَ في المنطقة غير عددٍ قليل. كنت في المدينة عندما جاء السيد فارسي وقال:

- اتصل مير حسيني وأخبرني أن «طريق البهار» التي هي تحت سيطرة الفرقة معرّضة لتهديد الأعداء، إذ ليس من قوات منظمة هناك سوى مجموعة من العناصر المتفرقة التي جمعناها في سرية

وجعلنـا عليها قائدًا مؤقتًـا، وطلب منك العـودة إلى المنطقة خلال 24 ساعة إن استطعت ذلك.

كانت هناك طائرة جاهزة للإقلاع فأقلّتنا مع البقية إلى المنطقة. ما إن وصلت حتى أعطاني «مير حسيني» التعليمات والتوجيهات اللازمة، فالأعداء على أهبة الاستعداد للهجوم علينا. أرسلني «مير حسيني» إلى الخطّ الأمامي حيث نظّمنا القوات المتموضعة هناك استعدادًا للدفاع.

عندما كنتُ أفكر بمير حسيني وأنا في الخط، أيقنت أنه جعل حياته وقفًـا[1] للحرب، وهو متأهّب في جميع الظـروف للدفاع والتصدّي. كان مجاهدًا فريدًا ونادرًا.

بعد ذلك شاركت في عمليـات «كربلاء1»، انطلقت القوات في الرتل رقم(1) عبر بستـان «خسرو آبادي» إلى «قلافيزان»، وفي الطريق قال لي مير حسيني: «لا تضيّعني».

كنـت بريده الخاص[2] وإن أضعتـه سيتعثّر في مهمتـه. كنت أوصل رسائله إلى آخـر الرتل وإلى قادة الكتائـب والسرايا والوحدات وأعود إليـه سريعًـا. بدأت قـوات الفرقة هجومهـا من ثلاثة محـاور، المحور الأيسر والأيمن والأوسط، وشكّل المحور الأوسط رأس الحربة والأساس في الهجوم بقيادة «مير حسيني».

بعـد أن سرنا حـوالي الساعتين، وصلنا إلى حقل ألغـام زرع بأنواع الألغام المضادة للأفراد من «فالمارا»، «vs» – «pomz» و«Ts50» وغيرها.

1– «الوقف» مصطلح فقهي؛ وهنا كناية عن أنه نذر حياته للحرب و....

2– بريد أو مرسال؛ مهمّته في الحرب إيصال الأوامر والرسائل والتعليمات.

عندمـا تمكّن عناصر وحدة التخريب من فتـح معبر وسط الحقل، كان أمـر العمليات قد فُضح وتنبّه الأعداء لحركـة قواتنا في المحورين الأيمـن والأيسـر. استعددنـا للهجوم وعنـد الحقل أعطـي رمز ونداء العمليـات. كان العـدو يقصف بعنـف خط الهجوم من أولـه إلى آخره ويرشـق رصاصه بمحـاذاة سطح الأرض ليشلّ حركتنـا، لدرجة أننا عجزنا عن رفـع رؤوسنا. أردت النهوض، لكـن الرصاص مرّ بمحاذاة رأسـي ليستقر في الـتراب بالقرب مني. كان رأسـي ملصقًا بالأرض، حينها قال لي مير حسيني:

- هيا انهض واضرب الخط.

التفتُّ نحوه بتعجب، فقال:

- لقد صدّ العدو قواتنا وشلّها، هيا انهض وتحرك.

كان حقـل الألغـام واسعًـا ويفصلنا عـن العدو الـذي كان يمطرنا بنيرانـه من تلال «قلافيـزان» مسافة طويلة، لـذا لم نستطع الحركة، وانتظرنا ريثما تخفّ حدة القصف.

مـرّت عشر دقائق. كان من المقرر أن يُطلق رمز العمليات قبل طلوع القمـر بنصف ساعـة، فتقترب قواتنا من العـدو في الظلام الدامس، ومـن ثمّ تطهّـر متاريسهم وتحصيناتهم على نـوره. دنت لحظة طلوع القمـر فقلت لمير حسيني بـين الجد والهزل: « كما تـرى! فإن رصاص العدو منهمر عليّ بينما تطلب مني الهجوم على الخط!».

كان هذا ما مـرّ في خاطري فنطقت به. فجأة! نهض «مير حسيني» مـن دون أن يبالي بالرصاص، الرشاشات، الدوشكا ومضاد الطائرات

المنهمـرة علينــا. رأيتُ رصاصــة رشاش «كاليــبر» الأوتوماتيكي تخرق طرف قميصه وأخرى تمرّ بــين قدميه، نظرتُ إليه وأنا منبطح أرضًا، بدا لي بقامته وهامته أطول بعشر مرات بل وبمئة مرة. كان كالطود في مواجهة الأعداء. طودٌ احتمينا خلفه.

انطلــق هو وبقي الرتــل مكانه. عندما رأيته يتقــدم دبّت الجرأة في كيــاني للنهوض. سار مــير حسينــي في المعبر ونحن خلفــه متجاهلين النــيران التي كانت تنصــبّ علينا، وكأنها تنهمر من فــم تنين قابع في مرتفعات «قلاويزان».

كان مير حسيني أول الواصلين إلى مواقع ودشم الأعداء، ومن خلفه نحــن، وبهذه البساطــة سيطرنا على الخــطّ. لكن لو لم يكــن موجودًا لكان...

في الصبــاح، كانت الكتائب ما زالت تطهّر دشم العدو وتتقدّم بينما الأعداء ينسحبون ويتقهقرون.

كنــتُ أسير خلف «مير حسينــي» الذي لم يهدأ دقيقــة واحدة. كان يرمي القنابل اليدوية داخل الدشم، ثم يتابع تقدّمه وقواتنا من خلفه.

صعدتُ إحــدى الدشم للحظة، فسمعت صــوت انفجار تحت قدمي واهتــزت الدشمة. فجأة صرخ «مير حسيني» من أمام الدشمة فقفزت إلى الأسفــل. كان غاضبًا فصرخ في وجهي: «لم صعدت الدشمة؟ ماذا لو أصابك مكروه لا سمح اللّه؟».

اعتذرتُ منــه فطوّق عنقي وقبّل وجهي، وأسف لصراخه في وجهي. كنــت أعتذر لعدم حــذري فقال: «لقد خفــتُ أن تصاب بجــرح أو ...»

حاول طوال ذلك اليوم أن يزيل الكدر الناتج عن سلوكه معي.

في الصباح وبعد تطهير الدشم تموضعنا في الساتر الترابي، ورويدًا رويدًا كانت دبابات العدو التي فرّت تحاول التقدم نحونا. من جديد عادت حمم مدفعيتهم وقذائفهم تنهال علينا من جديد. بعد ساعة تقريبًا صرنا كمن يسير في جهنم نيران الأعداء.

لم تكن أجهزة اللاسلكي لتهدأ دقيقة واحدة، وقد تأزّم الوضع، والمحور كلّه سيصبح عرضة للخطر إذا انسحبنا إلى الخلف. ركب مير حسيني دراجة نارية وطلب مني الركوب خلفه.

أعطاني آر بي جي وذهبنا وسط الدبابات للاستطلاع والصيد في آن.

عدنا، وذهب ثانية لصيد الدبابات مع خسروي، وثالثة مع هراتي. ومن خلال تلك المناورات في ذلك اليوم، تمكن من إعطاب 8 دبابات للعدو فشلّ حركته كليًا.

لمحتُ علي كيخا مرّة، رجل طويل القامة نحيل الجسم يتحدّث بلهجة زابلية، إن لم تكن تتقنها فيتوجب عليك الإصغاء جيدًا لتفهم ما يقوله. كانت مذكراته مدسوسة بين كومة الأوراق. وضعتُ نموذجين أو ثلاثة من مذكراته جانبًا:

لم يكن مير حسيني ليهدأ دقيقة واحدة في مكان واحد، كان يضع قدمًا في الخطوط الخلفية وقدمًا ثانية في الخطّ الأمامي. في بعض الأحيان كان يدّعي عدد من المقاتلين أنهم رأوا مير حسيني في الساعة عينها في أماكن أخرى، ويدور الجدال بينهم: أن من رأيته أنا كان «مير حسيني» وليس من رأيته أنت!

في عمليات «كربلاء 1»، كنت أتقدّم بقوات الكتيبة، وقد دارت معارك ضارية على تلال «قلافيزان». شاهدنا من مكاننا تبادل إطلاق قذائف الآر بي جي ورصاص الدوشكا بين الطرفين.

ما إن اقتربنا من منطقة المعارك، حتى قفز عدد من مقاتلينا عن إحدى الدبابات وصرخوا بنا ليمنعونا من متابعة التقدّم، فطلبت من الرتل التوقف. أشاروا بأيديهم إلى ناحية «تلال قلافيزان»، وقالوا إنّ العراقيين قد أسروا عناصر الكتيبة المشتبكة. نظرت بالمنظار إلى منطقة المعارك التي غطتها سحب الدخان والغبار ورأيت عددًا من المقاتلين المنتصرين وآخرين وقعوا في الأسر، لكنني لم أستطع أن أتبين ما إن كان المنتصرون من قواتنا أم من الأعداء.

عدت بالدراجة النارية إلى الخلف وأخبرت الحاج قاسم سليماني بما جرى، فطلب بدوره من «مير حسيني» الذهاب واستطلاع الأمر. عدنا وما إن وصلنا إلى الرتل حتى أخذ مير حسيني المنظار، ثم قال بعد أن دقّق النظر إلى منطقة الاشتباك، إنّ العراقيين هم من وقعوا أسرى بيد عناصر فرقة «نصر5». انزعج مير حسيني كثيرًا للخبر غير الدقيق وأنّب مطلقيه بشدّة. بعدها سار نحو منطقة المعارك ولحقنا به. علمت في الطريق أنه حوصر من قِبَل العراقيّين، لكنّه تمكّن من الإفلات منهم. عندما وصلنا أسرناهم جميعًا.

لم يكن مير حسيني ممن يستكينون في مكان، فروحه المتوثبة دومًا كانت تتوق لدنيا أوسع. حقًّا كان صاحب روح عظيمة ونبيلة.

أجل! لقد جالت روح هذا الرجل السيستاني الكبير في جميع الجبهات، وتشهد تلال قلافيزان على شجاعته وبسالته،

فما زالت هتافاته يتردّد صداها في سهول مهران. «علي آقائي» شاهد آخر على تلك الحقائق:

لم يكن لسان مير حسيني قاطعًا في المعسكر فحسب، بل وفي المعارك أيضًا. في عمليات «كربلاء 1»، سيطرت قواتنا على تلال قلافيزان، وتابعوا زحفهم نحو مدينة مهران. بدأ العدو هجومه العنيف علينا، وعانقت صدور مقاتلينا الساتر الترابي مستميتين في الدفاع عن الخط. لكن شحّ الذخيرة وحرارة الطقس والعطش أنهكتنا. وراحت دبابات العدو تتقدّم نحونا لتقضم المنطقة رويدًا رويدًا.

كنّا حيارى لا حيلة لنا عندما وصل مير حسيني، ووقف أعلى الحصن حاملًا مكبر الصوت بيده متجاهلًا رصاص رشاش كاليبر. رفع صوته بالتكبير وصاح:

– يا أصحاب أبي عبد الله! هذه ساحة الاختبار، هذه كربلاء. وإذا كنتم ممن يلبون النداء فاحزموا أمركم وادحروا عدوكم. هيا استعدّوا للاختبار، فها هنا ساح الفرقان بين الحق والباطل. هيا! كبّروا وانقضّوا على الأعداء.

استعاد المقاتلون قواهم؛ كأنّهم قد وصلوا إلى ساح الحرب لتوّهم! فانقضّوا على الأعداء ودارت رحى حرب ضروس انجلت بعد ساعة عن تقهقر الأعداء وعودة الهدوء للمنطقة.

كانت آخر مذكرات تلك العمليات تعود لـ«علي رضا حيدري نسب»:

في عمليات «كربلاء1» كانت المرة الأولى التي أشارك فيها في

العمليــات. نقلونــا إلى الخطّ الأمامــي وأعطوا الأوامــر بالحركة ليلًا. وقفنــا في رتل وانطلقنا. كانت المعارك قاسيــة والرصاص ينهمر علينا من كل حدب وصوب. كنا نسير في شق، ولم نكد نصل منتصف الطريق حتى ردّونــا على أعقابنا وغــيروا المسير. وأيضًــا في منتصف الطريق الثــاني غيّروا مسيرنا وعدنا أدراجنــا. تكرّر هذا الذهاب والإياب عدة مرات حتى مللت. لم نكن نعلم ما الذي يرمي إليه القادة. وكان قصف العــدو شديدًا فجرح واستشهد عدد من الرفاق، وكنت أنا من الجرحى وعدت إلى الخطوط الخلفية بمشقة كبيرة.

التقيت مير حسيني بعد أيام عدة فسألني عن أحوالي، وتحدثنا عن العمليــات فشكوت له عــدم التنسيق ورحلات الذهــاب والإياب ليلتها، منتقــدًا قادة المحور بشدّة. عندها وضّح مير حسيني بعض الأمور التي خفيــت عني، وحدّثنــي عن العقبات التي واجهــت العمل، وافترقنا بعد ذلك الحديث المفصل والطويل.

في اليــوم التــالي تحدّثت عن العمليات مع الرفــاق فقال أحدهم إنّ مير حسيني كان في مقدمة الرتل. تعجّبتُ كثيرًا وبهتُّ، ثم سألته بلهفة:

- هل أنت متأكد؟

- أجل! لقد كان قائد المحور في الليلة الأولى للعمليات.

انهــرتُ وتذكّرت حديثــه البارحــة، أيّ كلام قاسٍ قلتــه، وكيف مرّ مــير حسيني عليــه مرور الكرام. لقد سحرني بحســن أخلاقه وسلوكه القيادي.

أقفــلُ ملــف عمليــات «كربــلاء1»، وأضــع المذكرات مــع باقي

أوراق هـذه الكومـة، لأسحـب غيرها من كومة أخـرى. أريد أن أعـرف أكثر عن لحظات عبادته، صحيح أنني وجدتُ ضالتي في بعضـ الكتابات، وسمعت بعض الأمور من هنا وهناك، إلا أنني كنت بحاجة لمعرفة المزيد.

أقـرأُ المذكرات المتفرقة في معظمها صفحـة صفحة. مقابلات ألف شخص وألف من الذكريات المختلفة.

تجذبُ أول ورقة نظري، وكانت لـ«عبد الحسين مير شهركي»:

جئـتُ في أحد الأيـام للقاء مير حسيني، وكان وقـت الظهيرة حيث توجّـه الجميع نحو قاعـة «مهدية»[1] للصلاة، عندما وجـدت أن الوقت غير مناسب، قررت الذهاب للصلاة أولًا ومن ثم ألتقي به.

بعـد الصلاة، بحثت عنه في «مهدية» ولم أجـده. توجه الجميع إلى قاعـة الطعام للغـداء وتبعتهـم. وقـف التعبويون والمجنـدون في صف الطعام، ووقفت أنا في آخره.

أخـذتُ الطعام وجلست في زاوية وبـدأت الأكل. كان ظني أن القادة يتناولـون طعامهم في المركز[2] وقررت الذهـاب إلى هناك بعد أن يكون مير حسيني قد تناول طعامه.

وقـع نظري عليه، كان يقف في صف الطعام يحمل بيده سبحة ويردد الأذكار والأوراد. نهضت بسرعة ودنوت منه. بعد السلام والتحية قلت له:

- اجلس يا حاج وسأحضر لك طعامك.

1- قاعة تشبه الحسينية، يستفاد منها في مجالس العزاء وإقامة الصلوات.

2- المقر أو الستاد.

لم يقبـل. وأصرّ عددٌ آخر من الرفاق علـى إحضار الطعام له لكنه لم يقبل أيضًا.

وقفـتُ بجانبه إلى أن حصل علـى طعامه، ثم ذهبنا إلى حيث كنت أجلس، كان يتصرف كباقي التعبويين؛ وكأنه لم يكن نائب قائد الفرقة.

رسـم «محمد علي جامي» بساطةَ حيـاة مير حسيني، صورةً طُبعـتْ في قلبه، كالصـورة المعلقة على الجدار عنـد رأسي، ويا ليتني أستطيع أن أدسّها في قلبي. أقرأ في تلك الصفحات:

يحـدثُ أن تنطبع في ذهنك صورةٌ أو مشهـدٌ واحد عن شخص ما، لكن هذه الصورة الفريدة تلهب روحك وتأسرك إلى الأبد.

تقرّر إرسالنـا إلى الجبهة، وكنا جميعنا من أبنـاء سيستان. ركبنا الحافلـة متجهـين إلى كرمـان، لنركب القطـار هناك مـع باقي قوات المحافظة إلى المنطقة (الجبهة).

رافقنا مير حسيني في تلك الرحلة، ووصلنا عند الظهر إلى «بردسير» كرمان. قال الإخوة إنّه قد حان وقت صلاة الظهر، فطلب مير حسيني من السائق التوقف. وقفت الحافلة بالقرب من منطقة سكنية فترجلنا منهـا وتوضأنا، ثم وقفنا للصـلاة بإمامة مير حسينـي. المشهد الذي أعنيه وأبينه حدث في ذلك المكان، وما زلت أذكرُ تفاصيله.

كنـا في السجـدة الأخيرة للصـلاة عندما طرق سمعـي صوت مير حسينـي، كان يقـول: «إلهـي العفـو» بطريقة ولحـنٍ شعـرتُ معها أن الحصـى سيتفتّت من تحتنـا، أو أن الأرض ستنشـق وتقوم الساعة. لا أدري ماذا ألمّ بي حتى ارتجف جسدي على وقع صوته.

رفع مير حسيني رأسه من السجود ونهضنا نحن أيضًا. انتهت صلاة ذلك اليوم، لكنّ صوته الملكوتي ما زال يطُنّ في أذنيّ. في ذلك الصوت، رأيت الله، ومير حسيني وكل الدنيا والآخرة[1]. هذا ما عنيتُه أن صورةً ما تنطبع بعض الأحيان في ذهننا إلى الأبد، أَجَل، صورةٌ واحدة!

كنتُ قد شهدتُ طائراتٍ كثيرة مرّت فوق رأسي؛ في تلك الأيام كانت تأتي وتقصف المدن، ورأيتُ الرجال والنساء ينتشرون في كل الأنحاء والاتجاهات؛ كقطيعٍ هاجمه الذئب كلّ واحد يهيم في اتجاه. كتب «حسن كشتكر نكاهي» عن مير حسيني من زاوية أخرى:

أحضروا القوات إلى معسكر الغابة (جنگل)، بالقرب من الأهواز، ليتم توزيعهم على الكتائب. وقد امتلأ المعسكر بقوات قادمة من مختلف المناطق والمدن؛ من كرمان، زابل، زهدان، شهر بابك، سيرجان وغيرها. حلّ وقت الظهر ولم يكن توزيع القوات قد انتهى، وما زال هناك عناصر تتردّد في الأنحاء والأرجاء. تقرّر أن يصلّوا ويتناولوا الطعام، ثم يتابعوا توزيع القوات. بعد الصلاة، ذهبوا إلى قدور الطعام والبحث عن مصدر لمياه الشرب.

ما إن وقف مير حسيني للصلاة حتى سمعنا صوت الطائرات. كانت طائرات معادية، وإلا فلا مبرر لدوران طائراتنا في الأجواء بهذا الشكل. ركضنا كلٌّ في اتجاه؛ تمامًا كقطيع هاجمه الذئب. كنت أجول بنظري بين الأشجار والسماء؛ فلمحت مير حسيني واقفًا في الساحة للصلاة، وكأن لا طائرات معادية قد جاءت لقتلنا. في الحقيقة خجلتُ

1- كأن قصده: شعرت بوجود الله في ذلك الصوت ورأيت فيه الدنيا والآخرة.

من الهـرب بعد أن رأيت هذا المشهد. وقفـت أراقبه وهو يصلّي بهدوء تـامّ. وبعـد أن سلّم منهيًا الصلاة، رفعَ بصره نحـو السماء، كأنه جاء من كوكب آخر، ولا يدري أنه في معسكر الغابة، وأنّ في السماء ...

كان مـير حسيني من سنخ آخـر، من سنخ أولئك الذين لم نعدْ نرى أمثالهم منذ سنوات.

عـثرت في تلك الأوراق على مذكـرات مهدي صوفي، الرادود (المداح) ومسؤول التبليغ، وقد كتب كثيرًا من الذكريات عن مير حسيني، وكنت قد قرأتها سابقًا:

كان مير حسيني، وكان عشقه لزيارة عاشوراء.

لم تقـم مراسم زيارة عاشوراء لعدة أيـام في المعسكر، بسبب عدم وجود الرواديد، إضافة إلى مشاكل «مهدية» وغيرها.

عندما علم مـير حسيني بالأمر ناداني بغضب، ذهبت إليه وسألني بحدّة ووضوح:

- لِمَ توقفت مراسم زيارة عاشوراء؟

عندما أخبرته عن السبب الأول قاطعني قائلًا:

- ليس مـن الضـرورة أبدًا أن يكـون قارئ الزيـارة صاحب صوت جميـل وحسـن، المهم أن تقرأ بشكل جيد وصحيـح، وأن لا تنسى تلاوة الزيارة في جبهات الإسلام.

كنـا نقرأ زيارة عاشوراء في «المهدية» كل يوم قبـل أذان الصبح. وإن حدث وتأخر القارئ، يتوجه القائم على المصلى مباشرة إلى مير حسيني الـذي ينظـر في الأرجاء متسائلًا عمن يريد قراءتها؛ فـإذا لم ينبرِ أحد

للمهمة، يحمل المذياع (الميكرفون) ويقرأها بنفسه. لم يكن صوته جميلًا، لكن كما قال، المهم القراءة والمواظبة عليها في جبهات الإسلام.

في إحدى المرات كنا ذاهبين من خيمة التبليغ إلى المهدية وكان مير حسيني يومها يتحدث عن المداح والرادود قائلًا:

– على الرادود أولًا أن يتحرق شوقًا كي يستطيع نقل تلك المشاعر للآخرين. ومهما حاول لن يستطيع أن يلهب المجلس إن لم تكن قراءته وأذكاره نابعة من الإخلاص ومن حرقة القلب.

وفي يوم آخر التفت نحوي بعد انتهاء الدعاء وقال:

– لمَ تثير كل هذا الضوضاء في قراءة الدعاء؟ فقراءته لا تحتاج للحشو في الكلام. ما هو مطلوب منك فعله أن تقرأ من صميم القلب، كما لا يجب عليك أن تكرّر الدعوة لسكب الدمع ورفع الصوت ليصل إلى كربلاء وما شابه ...

وكان يقول أيضًا:

– هناك مقدّمات للقيام بواجباتنا العبادية. الوضوء و... ولقراءة الدعاء والمدائح والتعزية ينبغي أن نكون على وضوء أيضًا. يجب أن نشعر أننا في حضرة الحق تعالى في كلّ لحظة. والوضوء يمنح الإنسان السكينة، ويهيّئه للتوسل ومخاطبة أهل البيت عليهم السلام.

كان يريد إقامة مراسم الدعاء في كلّ مكان، ولم يكن يتوانى عن القيام بجميع ما يلزم لأجل ذلك.

كنا في منطقة الأهوار حيث تلفح الرطوبة والرياح وجوهنا فتنعشنا. في ذلك اليوم، ذهبت إلى متراس التبليغ وكان على الماء حينها. عندما

جلست سمعت صوت زورق. توقف الزورق قرب المتراس، ثم دخل مير حسيني. تبادلنا التحية والسلام، وسألني:

- إلى متى ستبقى هنا؟

- لقد جئت لأبقى.

- إذًا تعال غدًا إلى متراسنا لقراءة زيارة عاشوراء!

قبلت. كان لديه عمل، وبقي عندي دقائق معدودة وغادر بعد أن أنجز عمله.

في اليوم الموعود، ركبت زورقًا مع قائده وانطلقنا. عبرنا وسط نباتات القصب إلى أن وصلنا إلى مقر القيادة. نزلت من الزورق وذهبت مباشرة إلى متراس مير حسيني والقلق ينهشني من أن أكون قد تأخرت عن الموعد.

عندما دخلت المتراس نظرت في الأنحاء، فرأيت مير حسيني قد استقبل القبلة وحده، يتلو الدعاء من كتاب مفاتيح الجنان، بينما جلس بعض العناصر هنا وهناك بشكل متفرّق.

ألقيت السلام فالتفت نحوي وردّ السلام. جلست بالقرب منه مندهشًا لأن المقاتلين لم يجتمعوا لسماع الدعاء بعد، فبادرني مير حسيني بالقول:

- اِبدأ بقراءة الدعاء.

استقبلنا القبلة معًا وبدأتُ القراءة. ومن اللحظة الأولى بدأ مير حسيني بالبكاء والتمتمة بالدعاء، متجاهلًا أننا أنا وهو فقط في المجلس! كان في حال روحية وكأنه في مجلس تلاوة كبير يشارك فيه الآلاف.

لـن أنســى أبدًا حالــه ذلك اليوم، تلـك الحال المعنويــة التي جعلته متميّزًا في ساحات الوغى والقتال.

أثناء العمليات جلسنا في مركز أركان الفرقة، وصل مير حسيني بيدٍ ووجــهٍ وجسم مدمّاة ومضمّدة، ولم يكـد يصل حتى سأل عن العمليات وتقــدم القــوّات وأوضاع الكتائـب متجاهلًا جروحــه، فَعَلَـتْ أصواتنا استنــكارًا. وسأله الحاج قاسم سليماني عن الذي حدا به للمجيء إلى المنطقــة وهو بهذه الحال، وألم يكن في استراحة؟! كما اعترضنا عليه، أصررنا عليه للعودة إلى الخطوط الخلفية. لكنه لم يعر حاله الجسدية أيّ اهتمــام، وباءت جميع محاولاتنا بالفشل، لم يرجع، بقي وعمل على إرشاد وتوجيه القوات.

تعود آخر ذكرياتي إلى تلك الصورة التي أحتفظ بها في ألبوم الصور.

عند الظهر، أجمـعُ الأوراق، وأترك المذكرات الأخرى لأقرأها في وقـت لاحق. لن أقـرأ شيئًا الآن، إذ تنتظـرني أيام حسّاسة. إنهـا الأيام الأخيرة، وكلّ يوم منها هـو بألف يوم حيث إنّ «مير حسيني» قاتل خلالها آلاف المرات. وسأبقى بانتظار الآتي.

الفصل الثامن

كنت نائماً عندما أحضروا بطاقة السفر مع ملاحظة كتب عليها: «لقد اشترينا بطاقة السفر لبعد غدٍ، وبالمناسبة سنرسل لك غداً سيارةً قرابة الظهيرة لتقلّك إلى ضريح الشهيد، فكن مستعدّاً».

ها قد شارفت رحلتي على نهايتها. أُدرك ذلك عندما أقرأُ الملاحظة. غدوتُ الآن على معرفة وثيقة بمير قاسم، وقد صار من أكثر معارفي قربًا. وقد علّقتُ صورته على الجدار لأتأمّلها في اليوم مئة مرة،.. شامخًا كالطود مخاطبًا الجموع.

أقرر أن أتحرّى دقائق حياته لحظة بلحظة، أين ذهب؟ ماذا فعل؟ ماذا رأى؟ وكلّ شيء.

علمت أنه جاء في آخر إجازة له قبل عمليات «كربلاء 4» في انتظار قدوم مولوده الأول الذي أبصر النور بعد مرور أربع سنوات من زواجه. كيف ذهب؟ هل كان المولود فتى أم فتاة؟ حقًّا! لمَ لم يخبرني أحد عن ذلك الأمر؟

راحت التساؤلات تتوارد إلى ذهني، إذ ينبغي أن يكون الآن في الحادية عشرة من العمر، وأنا لم أرَ ولدًا بهذه السنّ في منزل الحاج مراد!

بدأت القـراءة، وتذكرت كلام الحاج مـراد الذي أخبرني عن آخر إجازة للشهيد:

جاء مير قاسم في إجازة، وكان في كلّ يوم يزور قرية من القرى يلقي الخطب ويحثّ الشباب على الجهاد ويساعدني في بعض الأحيان. في أحد الأيام، قال لي: «أبي! انذر أضحية لنصرة المقاتلين في الجبهات». عندما كان صغيراً كان يذبح الخروف الذكر أضحية وقرباناً، أجبته قائلًا:

- حسناً كما تشاء.

- إذًا، انذر هاتين البقرتين لنصر المقاتلين.

وافقتُ، وبقيتْ تلك البقرتان في انتظار النصر لتُقدّما قرباناً. مرّت أشهـر لم يحـدث أيّ جديـد في الجبهـات، وعندما عاد مـير قاسم في إجازة قلت له:

- لا أخبـار جديـدة عن الجبهة، كما إنّ كميّـة العلف أضحت قليلة جداً، فماذا أفعل بهاتين البقرتين؟

- بعهما وأودع المبلغ في المصرف، وعندما تسمع أخبار النصر أودع المبلغ في حساب الجبهة.

وهذا ما فعلته. بعدها استشهـد مير قاسم وبقيت بانتظار النصر. وعندما انتهت الحرب أودعت المبلغ في حساب الجبهة.

لم يحـدث أن طلـب قاسم مني شيئًا لنفسه، لكـن في آخر إجازة له التفت نحوي وقال:

- أعطني واحدة من هذه البقرات.

- ما هذا الكلام يا بني فكلّها لك!

- أريدها لمصاريف شهادتي.

عندما رأيت إصراره قلت:

- اذهب واختر إحداها.

دخلنا إلى الحظيرة واختار إحداها فقلتُ:

- حسناً هي لك.

بعد أيام عدة من عودته إلى الجبهة، بثّ الراديو صوت نفير الحرب والعمليات من الراديو. خرجت من الغرفة فسمعت خوار إحدى البقرات، كانت تهيج وترتطم بالجدار كأنها تساق إلى المسلخ. كانت تلك البقرة التي اختارها مير قاسم.

فيما بعد تنبهت للأمر، إذ إنّ ردّ فعل تلك البقرة كان متزامناً مع يوم ولحظة استشهاد قاسم!

أرتّب الغرفة، فقد قرأت كثيرًا من الأوراق؛ أضعُ المذكّرات التي قرأتها في علبتيّ الكرتون البنيّة اللون، والتي لم أقرأها بعدُ أتركها خارجًا. أرتّب الغرفة وأعجب لسرعة إنجازي المهمة! أضع المذكّرات التي لم أقرأها بعد أمامي وأبدأ بـ«عوض علي فقيري»، الذي تفوح من كلماته رائحة الوداع:

شعرت في أحد الأيام أن مير حسيني يريد أن يقول لي شيئاً ما وعندما اختليت به سألته:

- هل تريدني في أمر يا حاج؟

لم ينبس ببنت شفة فأصررت عليه، عندها قال:

- أردت أن أسألك أمراً، وأقسم بالله عليك أن تجيبني بصدق!

سألته مندهشًا: ما الخطب يا حاج؟

- هل بقيت قطعة من الموكيت؟

كنا في تلك الأيام نشتري الموكيت والسجاد من المصنع، ونوزّعها على عوائل المقاتلين بأسعار تشجيعية.

- أجل، ولمَ تسأل؟

سكت، فقلت:

- بالله عليك أخبرني ما الأمر يا حاج؟

طأطأ رأسه وقال:

- أردت قطعة موكيت.

- من عيني.

- ولكن ...

قلتُ بحدّة:

- أنت من قدامى المقاتلين وأحقّ منا بذلك، كما إنّك لم تأخذ شيئاً حتى اليوم.

قال وكأنه منزعج من أمر ما:

- بالله عليك أصدقني القول يا سيد فقيري، هل حصل جميع التعبويين على حصصهم؟ فأبي يريد قطعة موكيت ...

– يا حاج لدينا سجاد وكلّ شيء أيضاً.

– لا، أريد فقط موكيتًا، لكن تأكد من أنّ الجميع حصل على حصّته، ومن ثم أعطني واحدة.

وأصرّ عليّ مجدداً أن لا أعطيه شيئاً قبل أن يحصل جميع التعبويين على حصصهم. وبالمناسبة! حتى إنه لم يأخذ قطعة الموكيت أبداً. أقصد أنني جهزتها له؛ لكن، وصلنا نبأ استشهاده قبل أن يستلمها.

كان في كل مرة يتحدث إلي يقول:

– بما أنك هنا فاحترس من أمور عدة، منها إن لم تكن نيتك خالصة لله، فاعلم أن جهادك وكدحك ليل نهار لن يكون ذا بال. اعمل لرضى الله ولعوائل الشهداء والمقاتلين، وإن لم تحصل على النتيجة المرجوة فحينها لن تلام، علينا العمل بالتكليف فحسب.

وقال أيضًا:

– دورك في الحرب والجبهات ليس بأقل من دور المقاتل. إذا كان المقاتل مطمئناً لا يعاني من مشاكل حتى ليوم واحد، ففي الوهلة الأولى سيكون بال القائد مطمئناً فيفكر ويخطط ويقاتل براحة أكبر. وإذا كانت عوائل الشهداء راضية عنك، فالله سيكون راضيًا عنك أيضاً.

وكان يقول أيضًا:

أرتّب الأوراق وأرافق «حسن مير شهركي» إلى الجبهة نحو شلمجة:

في شهر أيلول، جاء مير حسيني إليّ وقال:

- أريد الليلة الذهاب إلى كرمان، وإن شئت رافقني فأنا بمفردي.

لقد حقق الله لي أمنيتي في مرافقته، كان عليه إلقاء كلمة قبل خطبة الجمعة في زاهدان؛ ألقى كلمة حماسية في زاهدان، ثم اتجهنا نحو زابل ليودّع عائلته. ودّع العائلة وعدنا إلى مستشفى خاتم الأنبياء في زاهدان حيث أصيب والده في حادث سيرٍ وخضع فيه للعلاج. في تلك الليلة مازح أباه كثيراً، فوالده الحاج مراد علي رجل مفعم بالحيوية.

انطلقنا نحو كرمان عند الساعة الحادية عشرة والنصف، غمرته السعادة لعودته إلى الجبهة، كما كان الإخوة في الفرقة ينتظرونه في كرمان، ليعودوا برفقته إلى الجبهة. بعد مسافة 200 كلم شعرنا بالتعب فسألني:

- ما رأيك أن نبيت هنا؟

كنّا على مشارف «كهورك وشوره كز» ولم تكن آمنة في ذلك الوقت، فقلت له:

- المنطقة غير آمنة.

- لنسلّم أمرنا لله.

نام وبقيت مستيقظاً أحرس المكان وبندقيتي بيدي. استيقظ بعد ساعتين وسألني:

- كم الساعة؟

- الساعة الثانية والنصف.

نهض وقال: «لننطلق على مهل».

انطلقنا ثانية وهو ما زال متعباً، لاحظت أنّ سرعة السيارة كانت تخفّ أحياناً واللافت في الأمر أنه كان يستيقظ عند القيادة على المنعطفات ويغفو في الطرقات المنبسطة الممتدة. سألته:

- هل أنت نائم يا حاج؟

أجاب ببرودة: لا تقلق فأنا أقود دائماً من زابل إلى الأهواز. سيعيننا الله في ذلك.

بعدها راح يتمتم:

- إن كان حافظي هو الله ...

في الحقيقة، خفتُ كثيراً، وبدأت التحدث إليه. كنت أطرح عليه شتى أنواع الأسئلة لأجبره على التحدث فلا ينام. سألته عن الأمور العقائدية، السياسية، الثقافية وحتى الفقهيّة. لم يعد من سؤال في ذهني، لكن لحسن الحظ حان موعد أذان الصبح. توقفنا في مكان للصلاة وعندما انطلقنا غالبه النعاس ثانية، فقلت:

- هل عدت ...

لم يدعني أكمل وقال:

- إذا كنت منزعجاً فنم على المقعد الخلفي.

تمددت على المقعد الخلفي وقلت في نفسي «لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» واستسلمت للنوم.

استيقظت على أصواتٍ وضوضاء تأتي من خارج السيارة، حيث توقفت عند تقاطع طرق وسط مدينة كرمان. فركت عيني ووقع نظري

على مير حسيني الذي سألني ضاحكاً:

- هل استيقظت؟

أومــأت برأسي: نعم. فقــال: «لطالما سرت في هــذه الطرق فصرنا أصدقــاء، ولكثرة ما ترددت عليهــا ذهاباً وإياباً حفظتها عن ظهر قلب وصرتُ أقطعها إلى الجبهة وأنا مغمض العينين».

في الحقيقة كان مير حسيني رجل هذه الطرقات!

هناك ركبنا وباقي المقاتلين في الحافلة وانطلقنا عبر طريق سيرجان إلى الأهواز. بعد أن قطعنا مسافةً، وإذا بالسيل قد غمر المنطقة وحال دون استكمــال رحلتنــا فعدنا أدراجنا، وصلنا ليــلًا إلى إحدى البلدات واستقررنا في مسجدها.

قال مير حسيني:

- وزّع الخبز والجبن الذي بحوزتنا بين الإخوة.

نهضت لأنفذ المهمة، ثم أردف قائلًا:

- اقتصد فالكمية قليلة.

لم نتنــاول ليلتها غير الخبــز والجبن مع أننا كنــا برفقة نائب قائد الفرقة الذي يمكننا من خلال مرافقته الحصول على أفضل الإمكانات، لكن أن تكون مع مير حسيني يعني دائمًا حضور المعاناة، وفي تلك الليلة عشتُ أشدّ المعاناة لأنني نمت بمعدة خاوية.

أتناول مذكّرات مهدي صوفي، وهي عبارة عن صفحة واحدة وقـد كبس عليها صورة. أنظـر إلى الصورة؛ إنّـه مير حسيني

واقف للصلاة مطأطئ الرأس بعينين نصف مغمضتين. بدا كأنه لم يكن في هذا العالم، وإنما حلّق بعيدًا في العوالم القدسية. أقرأ ما كتب:

قبل عمليات «كربلاء 4»، كنا في خرمشهر، وكان معي آلة تصوير فقررت أن ألتقط صورة لمير حسيني من دون أن يلتفت لذلك.

كمنت له في الليل عندما وقف للصلاة، حملت الكاميرا والتقطت له صورة ثم ابتعدت بسرعة، إذ كنت أعلم أنه يجب أن لا أزعجه في مثل تلك الأوقات. طبعت الصور، وبعد أيام عدة أريته إياها وسألته ضاحكاً:

- هل تعرفه؟

نظر إلى الصورة بدهشة وقال:

- أين التقطت هذه الصورة؟

- في خرمشهر، قبل العمليات.

لم ينتبه تلك الليلة إلى أنني التقطت له الصورة! عندها تذكرت قصة الإمام علي عليه السلام عندما كان يصلي فتمكنوا حينها من نزع السهم الذي أصاب قدمه. كم كان مير حسيني شبيهاً بمولاه أمير المؤمنين عليه السلام.

أنظر ثانية للصورة وقد طُبع آخر ما قاله مهدي صوفي عنه في قلبي:«كم كان شبيهاً بمولاه».

يتحدّث السيد «إبراهيم يزدي» عن بدء الانطلاق نحو منطقة العمليات:

قبل أيام عدة من عمليات «كربلاء 4»، وبعد صلاتي المغرب والعشاء

قال لي مير حسيني:

- لنذهب معًا إلى الخطّ الأمامي.

كان معي شاحنة تويوتا صغيرة (بيك آب) فقلت:

- في خدمتكم يا حاج!

انطلقنا، وكي لا تزدحم الجادّة في أطراف مدينة خرمشهر ويفتضح أمر العمليات، توجّب علينا الذهاب عبر جادّة الأهواز- عبادان، ومن ثم عبر جادة ماهشهر مروراً بقرية «أبو شانك» لننعطف بعدها نحو عبادان حيث مقر الفرقة. كان علينا قطع مسافة 50 كلم من دون إضاءة مصابيح السيارة.

قطعنا المسافة إلى أن وصلنا إلى قرية «أبو شانك». كان نور القمر ضعيفاً تلك الليلة فلم نستطع الرؤية بوضوح. بعد ثلاثة أو أربعة كيلومترات لم أعد أستطيع رؤية شيء على الإطلاق، وقد نصطدم بشيء ما في أي لحظة وتتعرّض حياة مساعد الفرقة للخطر.

كنا نتحدث كي لا نشعر بطول الطريق، فقال لي:

- قف جانباً لأتولى القيادة.

- لا يا حاج سأسير على مهل.

- لا، بل سأقود أنا.

جلس خلف المقود؛ ولو أنّي لم أرَ ذلك بأمّ العين لما صدّقت؛ كان يسير في تلك الجادة المظلمة والمزدحمة بسرعة سبعين كيلومتراً في الساعة تقريباً، من دون أن يحيد عن الطريق المعبّدة قيد أنملة.

وصلنــا ووقفنــا خلف صف مــن السيــارات المتوقفة. وعنــد انبلاج الصبــاح، سيكونــون قد جمعــوا الجسر الممتــدّ من فــوق النهر. كانت الساعــة الثالثة صباحاً تقريباً وسيتمّ سحب الجسر من فوق النهر بعد وقــت قصير جدًّا، وإذا توقفنا فلــن نتمكن من عبور الجسر وسنضطر إلى أن نعــود أدراجنا. انحرف مير قاســم بالسيارة إلى جانب الجادة وســار على التراب مطلقًا بوقها مــن دون انقطاع إلى أن عبرنا الجسر قبل سحبه بثوانٍ.

وصلنــا إلى المكان المحدّد لنا، صلّينا صلاة الصبح، ثم جمع القادة ووضــع مخطّط العمليــات على الأرض ليشرحها لهــم، عندها تركته وذهبــت للنوم. تابــع عمله وكأنه لم يكــن إنساناً مثلنــا بحاجة للراحة والنوم، أو كأنه لم يكن من هذا العالم الترابي.

شاركــت في عمليات «كربــلاء 4» في كتيبة الغواصين الهجومية. أعدّ العدو دشمًا منيعة، وكانت ضفة نهر «أروند رود» مليئة بالعتاد والسلاح الثقيل والخفيف. ما إن نزلنا إلى الماء حتى بدأوا بقصفنا من كلّ جانب فأضحينــا كالإوزات العالقــة في شبــاك صياد وسط الميــاه. لم نكترث لذلــك، وتابعنا تقدمنا إلى أن تمكنا بعــون الله ومعين إيمان وإخلاص المقاتلين من السيطرة على الخطّ.

جاء مير حسينــي صباح العمليات. كنا متعبــين وقد اشتدّ القصف علينــا، وقف بيننا واتصل بالحاج قاسم سليماني عبر جهاز اللاسلكي وقال:

– لقد رأيت محمود ..

ثم بدأ بسرد البطولات وضخّ المعنويات قائلًا:

– لقد فرّ الأعداء، ومقاتلونا يلاحقونهم...

كان بفعلـه ذلـك يرفع مـن معنويات قائـد الفرقـة والمقاتلين على السـواء، وكأنّنـا لم نكـن نتعرض للقصـف، أو أن القـوارب لم تستطع الوصـول إلى الضفة... كان مـير حسيني يسدّ الثغـرات أينما وجدت! وهناك تذكرت عمليات خيبر مجدداً.

أصبحـت الآن علـى معرفة وثيقـة بعلي نجيـب زاده، وكنت قـد قرأت مذكّراته عـن مير حسيني وقد أعجبتنـي كثيراً. ليتني ألتقيه:

سدّ العدو بقصفه وقذائفه طريق العبور، لكنّ بعض الزوارق تمكّنت مـن التنقل بـين الضفتين ناقلـةً القـوات والعتاد إلى الخـطّ الأمامي، وحاملةً أجساد الشهداء والجرحى إلى الخطوط الخلفية.

كنت مع مير حسيني في زورق واحد، وما إن خرج زورقنا من مصب نهـر كارون، حتى تمكنت من رؤية جزيرة أم الرصاص. كان يمكن من هـذه المسافة البعيدة رؤية الأسلاك الشائكة والعوائق الشمسية وجميع العوائق الأخرى التي تحصّن العدو خلفها.

وصلنا إلى الساحل، عبر قائد الدفة بالزورق بين العوائق ووصل إلى اليابسـة. ما أشبـه المشهد بيوم الحشـر! كان كلٌّ يهرول في اتجاه، وقد انتشرت صناديق الذخائر المليئة والفارغة في كلّ مكان.

قفـزتُ من الزورق، نظـرت إلى هذا المكان الغريـب بحيرة، وجلت بنظـري في المنطقـة التي سيطرت عليهـا قواتنا الليلـة الماضية. كانت قذائف الهاون تتساقط من حولنـا ورائحة البارود والشظايا قد غطت

المكان. ألتفت لأسأل مير حسيني عن تكليفنا، فلم أره. سألت عنه قائد الدفة فقال إنّه لم يره، لا أعرف أين ذهب.

رحـت أسأل عنه المقاتلين المنتشرين على الضفة: «مير حسيني! هل رأيتم مير حسيني؟».

لم يكونـوا يعرفونـه، وبعضهم يعرفه بالاسم فقـط، ولم يكن قد رآه من قبل.

عندما وصفته لهم قالـوا: «أجل.. أجل لقد ذهب حامل إحدى هذه الصفات إلى الأمام».

اتجهـت نحو الخطّ الأمامي، وقد انبطحـت أرضاً ونهضت مئة مرّة قبـل أن أصل إليـه. في النهاية رأيته بين التعبويين منبطحًا على الساتر الترابـي يستطلع المعركة والمناطق الأمامية. جلست لاهثًا أسفل الساتر بانتظار أن ينهي عمله، وقد ارتاح بالي لأنني وجدته.

نـزل إلى الأسفـل، كنت أتبعه أينمـا ذهب كي لا أضيّعـه مع يقيني بأنّنـي سأجده دومـاً حيث التعبويّـون وقصف الهاونـات، وحيث يحلّق طائر الشهادة القاني.

غـداً هو اليـوم الأخير لي هنا، وأريد زيـارة ضريح الشهيد. أنهضـ وأُحضـر رقم هاتف «سلطان علـي» في دفتر الملاحظات، كنـتُ قـد تواعدت معه يـوم التقيته لزيارة ضريـح مير حسيني ولقاء حسن بـور إسماعيل ليحدثني عن ذكريات الأيام الأخيرة من حياة مير حسيني.

أتصلُ به وأُخبره عن الأمر فيقول إنّه سينسق اللقاء مع بور

إسماعيل على أن يوافينا إلى هناك.

أُخبره أنني أقرأ مذكّرات عمليات «كربلاء 4»، وأسأله إن كان حينها مع مير حسيني، فيقول إنّه كان معه، ويحدّثني عما جرى ذلك اليوم:

قال مير حسيني صباح عمليات «كربلاء 4»: «لنذهب إلى الضفة المقابلة».

أخذنا دراجة نارية (Trial) وذهبنا إلى الضفة، كان المكان يغصّ بالقوات والعتاد والزوارق، وقد انخفض منسوب المياه، فلم تتمكن الزوارق من الاقتراب من الضفة. نزلنا مع «إسحاقي»[1] ووضعنا الدراجة بمشقة داخل الزورق.

كانت الدراجة النارية ومكبر الصوت اليدوي الوسيلتين الوحيدتين اللتين يستخدمهما مير حسيني في العمليات. انطلق الزورق؛ كان العراقيون يقصفون مختلف أنحاء المنطقة بشكل جنوني، ونهر «أروند» هائجٌ مائج. وصلنا إلى الضفة الأخرى وأنزلنا الدراجة النارية إلى اليابسة بنفس المشقة، لكن لم تكن الأرض مناسبة للسير عليها؛ فاضطررنا لتركها هناك والتوجّه مشيًا نحو الخطّ الأمامي. لم يكن هناك غير طريق ضيق يمرّ بين القصب، كان مليئاً بأجساد الشهداء الذين بلغ عددهم ما يقارب عدد أفراد سرية. قال مير حسيني: «يجب نقل الجثث إلى الخلف في أسرع وقت، فمشهد الأجساد سيوهن عزائم المقاتلين الذين سيمرّون من هنا».

1– استشهد فيما بعد.

جوهرة هامون

بعد مسافة التقينا بـ«تاجيك» قائد الكتيبة. كان العراقيون يقصفون كل شبرٍ من المكان. وصلنا إلى الخطّ الأمامي بصعوبة بالغة، وهناك نظّم مير حسيني المقاتلين وأمضى معهم حوالي الساعتين، ثم عاد أدراجه بينما بقيت أنا.

بعد ساعات عدة التقيت مير حسيني مجدداً فقال لي ضاحكًا: «أين كنت وماذا عساي أقول لعائلتك لو حدث لك مكروه؟».

ضحكنا مع أننا وسط معركة طاحنة، إلا أنّ ملامحه لا تنفكّ تبقى هادئة. اتصل لاسلكيًّا بمسؤول تعاون القوات وطلب نقل الجرحى والجثث إلى الخلف في أسرع وقت. أدركت من خلال كلامه هذا ما نحن مقدمون عليه. لقد أرسلَ القوات إلى الخلف بينما نحن تقدمنا. وصلنا إلى ضفة نهر أروند وكانت الدراجة لا تزال هناك فقال:

- خذوا الدراجة أيضاً.

لكن لم نتمكن من ذلك؛ فأعداد الجرحى والعناصر كثيرة. أَركب «مير حسيني» الجميع في الزوارق وركبتُ معه في آخر زورق.

بعد حوالي أسبوعين شاركت في عمليات «كربلاء 5»...

أطلب منه رقم حسن بور إسماعيل بغرض الاستفسار عن العمليات، فيجيب: «لقد تحدث حسن بور إسماعيل عن ذكرياته في تلك العمليات من قبل، وقد أرسلناها لكم، ابحث جيداً بين الأوراق سوف تجدها».

أشكره وأضع سماعة الهاتف مكانها، ثم أبدأ البحث بين الأوراق، فأجد مذكّرات بور إسماعيل:

انتهـت عمليات «كربـلاء 4» وطلبوا منا العـودة إلى الخط الخلفي. انطلقنـا بالسيارة ورحنا نجـول في شوارع عبـادان وخرمشهر لا نلوي علـى شيء، كنّا حيارى هل نعود إلى معسكـر الفرقة أم نبقى هنا! وقد خجلنا من النظر في وجوه بعضنا بعضًا كأننا ارتكبنا إثماً كبيراً.

كان لا بدّ من العودة إلى الأهواز. كان مير حسيني في السيارة معنا، لكنه أيضاً لم يتحدّث بشيء، وفي الطريق خيّم الصمت علينا جميعًا.

عندمـا وصلنا إلى معسكر الفرقة خفّفت السيارة من سرعتها خلف الساتـر الترابي قبل نقطة التفتيش. كانت سيارة الحاج قاسم سليماني مركونـة على جانب الطريق، وقد جلس أرضًا إلى جانب الساتر الترابي جامعًا ركبتيه بيديه. لم نتوقف، بل تابعنا سيرنا وهنا، أدركت عمق الألم!

خجلنـا أن نكـون أول الداخلـين إلى الاجتماع، فتريّثنـا كي يسبقنا الآخـرون. دخلنـا صامتين نرمق بعضنـا بعضًا بأطـراف عيوننا. كان الحـاج قاسم سليماني يذرف الدمـع، وكذلك نحن. لم يجرؤ أحد على الـكلام، تصدّى مير حسيني للـكلام كأنّما أراد تأنيبنـا: «ما بكم؟ لم تنظرون إلى بعضكم بعضاً هكذا؟ لم جئنا إلى هنا إذاً؟ إن كان الهدف اتخاذ القرارات هيا لماذا التأخير لنعود إلى أعمالنا».

عندها تجرأنا ورفعنـا رؤوسنا. فتابع مير حسيني: «هذا جيد، لكن ليس مـن المقرر أن تبقوا صامتـين. أنا مستعد مـن الآن، ومهما كانت العقبات فسوف ...».

تغـيرت أجواء الاجتمـاع وتولى تاجيـك الحديث بعد مـير حسيني وقال: «كتيبتنا على أتم الاستعداد ...».

ثـم نهضـ مشايخي وقال: «توزعـت بيوت الشهـداء في زقاقنا على الجانبـين، فكيـف لي العودة إلى كرمـان والنظر إليهم! أنـا على أهبّة الاستعداد، ولن أعود قبل النصر أو الشهادة».

وكأنّها ثورة قامت فتجرّأ قادة الكتائب وأعلنوا استعدادهم للمعركة. حينها قال مير حسينـي: «علينا الانطلاق فليس من المقرر البقاء هنا، نحن أيضاً لم ننتصر في عمليات بدر ...».

هنـا تابع الحاج قاسم سليماني الكلام وقال: «لقد رأيتم كيف كنت أجلس خارج المعسكر خجلاً من الدخول إليه، علينا الاستعداد ...».

كان ذلـك الاجتمـاع شـرارة إعـلان حـال التأهـب والاستعداد في الفرقة، بعد حوالي أسبوعين بدأت عمليات «كربلاء 5».

يجعلنـي اسم عمليات «كربلاء 5» أرتجف. هناك أنفصل عنه، سأنفصـل عن ذلـك الشاب السيستـاني الذي عشت بـين أوراق مذكّراتـه أياماً وأيامًا. لقد ألفته كثيراً خـلال هذه المدة، ولم أعد قادراً على مفارقته. تُـرى ما الذي حلّ برفاقه بعد استشهاده؟ ما الـذي حلّ بالحاج قاسم سليماني؟ وماذا عن أبيه وعائلته؟ لست متأهبًا لوداعة بعد، فكيف يمرّ الوقت بهذه السرعة؟

كتب عباس شهركي:

عندما انسحبنا خلال عمليات «كربلاء 4»، رأيت غضب مير حسيني عن كثب. كاد أن يجن. كان يقول: «لقد تجرأ العدو ويعدّ العدّة للهجوم على منطقة الفاو».

أرسلـوا كتيبتنـا إلى المنطقـة وطلبـوا منّـا الذهاب مـع باقي قادة

الكتائب إلى مقرّ الفرقة للحصول على التعليمات من مير حسيني، فتحلّقنا في الدشمة حول خارطة ومخطط المنطقة. تحدث مير حسيني عن تحركات العدو واستعداده للهجوم. كان يتحدث بهدوء: «سيهاجم العدو هذه المنطقة بين الليلة والغد، وعلينا التصدي له. لقد أحضرنا كتيبة من نخب كتائب الفرقة إلى المنطقة لردعهم ...».

كان مير حسيني يتحدث وأنا أتساءل كيف له أن يتحدث ببرودة وهدوء عن هجوم الأعداء المحتمل على المنطقة وعن واجبنا في الدفاع؟ حقًّا كانت الدنيا في نظره شيئًا لا قيمة له.

الورقة التالية تعرض ذكريات رضا محمد خان:

حزن الجميع لفشل العمليات من اليوم الأول. عدنا إلى المعسكر الذي أطلق الإخوة عليه اسم «جنكل» (أي الغابة) لا ندري ما ينبغي القيام به إذ لم يكن هذا الفشل متوقّعًا.

جاء مير حسيني إلى كتيبتنا فتحلّقنا حوله، كان في جعبتنا ألف سؤال وسؤال، لكنّه قال من دون مبالاة: «هيا لنلعب كرة القدم!».

بداية لم أعِ ما قاله، وهل هذا وقت اللعب؟! بيد أنه قرأ أفكاري فقال: «لم أنتَ منزعج؟ فالحرب كرّ وفرّ. لقد سعينا، لكنّ اللّه لم يشأ لنا النصر. فهل علينا أن نبكي الفشل ليلاً نهاراً؟ ربما أراد اللّه بذلك أن ينبهنا كي لا نصاب بالغرور».

حملنا الكرة وذهبنا إلى الملعب. زارنا مير حسيني في الأيام التالية كثيرًا كي يرفع من معنوياتنا إلى أن حان وقت عمليات «كربلاء 5».

يتحدّث علي آقائي في آخر ورقة من مذكّراته، عن معنويات

القوات بعد العمليات، وعن صيحات مير حسيني. لا أرغب بقراءتها الآن لأنها ستأخذني إلى عمليات «كربلاء 5». لكن، هل يمكن ذلك؟ هل يمكن أن أقاوم قراءة واقعة حدثت قبل أحد عشر عاماً في 19 دي 1365(9 كانون الثاني 1987)؟:

بعد عودتنا من عمليات «كربلاء 4» التي وخلافاً لتوقعاتنا لم تكن موفقة. كان عدد الشهداء والجرحى والأسرى كبيراً، وقد تهاوت معنويات المقاتلين.

سرى الحديث عن تسوية حسابات الإخوة، فمنهم من قرر العودة إلى الحياة العادية والأعمال بما أن العمليات قد انتهت. كان الوضع مأساوياً والقادة يبحثون عن حلّ لإنهائه.

في أحد الأيام، دعا مير حسيني عناصر كتيبة 409 إلى اجتماع، حضرناه جميعنا، تحدّث عن كربلاء والإمام الحسين عليه السلام وعاشوراء. ليتك ترى الوجوه كيف انقلبت أحوالها. قال مير حسيني: «من يريد منكم تسوية حسابه فلينهض، لكن مع من سيسوّي حسابه؟ مع الإسلام؟ مع إمام الزمان؟ مع القرآن؟ ...».

كان يبكي ويتحدث وجميعنا مطأطئو الرؤوس نبكي لبكائه.

فجأة نهض أحدنا هاتفًا: «قائدنا! قائدنا ... لبيك، لبيك ...».

شقّ هتافنا السقف وبلغ عنان السماء. وهكذا جدَّدنا البيعة لمير حسيني.

بعد أيام عدة، جرت عمليات «كربلاء 5» التي استشهد فيها عدد كبير من الإخوة الذين حضروا الاجتماع.

الفصل التاسع

بعـد صلاة الصبح، أَبقـى مستيقظا، فقد طار النوم من عينيّ لعلمـي أنه آخر يوم لي في هذه الديـار. أحاول إغماض جفوني فلا أفلـح. أجلس وأنظر إلى صورته علـى الجدار. لقد استشهد اليـوم. أعلم أنّ تاريخ استشهاده ليـس في مثل هذا اليوم، لكنه استشهد اليوم في قلبي، وها هو يحلّق بعيدًا أمام ناظريّ.

تهاجمنـي آلاف الأفـكار؛ أعجز أمامهـا ويصيبني حزن وغمّ ثقيـلان؛ فألجأ إلى الأوراق القريبة مني. أحمل بعضها وأقرأ ما كتبه عبد العزيز خوشدلي:

في إحـدى الليالي، كنّا في معسكر «جنكل» (الغابة)، وقد عدت من الصـلاة لتـوّي، سمعت شخصًـا يقول بصوت مرتفـع خارج الخيمة: «يـا الله».

كان صوتـه مألوفًا، وعندما أطلّ برأسـه إلى داخل الخيمة عرفته؛ إنّه مير حسيني مساعد قائد الفرقة. انتفضنا من أماكننا دفعة واحدة مرتبكين. دخل وسلّم علينا فردًا فردًا، ثم جلس وتحلّقنا حوله نتجاذب أطـراف الحديث. سألنا عـن الوضع في كتيبتنا، عـن الغذاء والحمّام واللباس وعـن كلّ شيء. كان العشـاء تلك الليلة مرق اللحـم. بعد أن شاركنا طعام العشاء، نهض لغسل الأطباق، لكنّنا منعناه، فكيف ندعه

يفعل ذلك؟ أصرّ كثيرًا على الأمر، وعندما لم يفلح بدأ بتنظيف المائدة. فكدت أذوب خجلًا.

بعد جمع المائدة، تحلّقنا حوله ثانية نتحدث بحميميّة أكثر. في نهاية هذا اللقاء، تلا علينا حديثًا شريفًا وغادر.

بالمناسبة! خلال العشاء قشّر البصل وراح يضربه بقبضته ليشقّه ويوزّعه على الإخوة. كانت ليلة لا تُنسى، ما زلت أستطيع تذكّر ووصف كلّ لحظة من لحظاتها. يا لها من ليلة عزيزة.

أضع مذكّرات علي رضا ستاري إلى جانب مذكّرات خوشدلي عن تلك الليلة:

بعد عمليات «كربلاء 4»، عادت جميع القوات إلى معسكر «جنكل». كان مركز أركان الفرقة يبعد عدة كيلومترات عن المعسكر، فكنا نلوّح للسيارات العابرة بأيدينا لتتوقف وتقلّنا إلى هناك.

في أحد الأيام، ذهبت من المقر إلى المعسكر سيرًا على الأقدام مع 3 من الشباب. كانت المسافة طويلة والطريق شاقة. مرّت بعض السيارات فأشرنا لها لتتوقّف لكنّها لم تفعل. تعبنا كثيرًا وراح الرفاق الثلاثة يتململون ويتذمّرون فقلت لهم: «لو كانت روحية السائقين كروحية قادة الفرقة لما واجهنا المشاكل... أنا واثق لو مرّ مير حسيني على هذا الطريق لأركبنا معه».

لم يبالِ الإخوة بكلامي، وقال أحدهم: «بسبب كثرة المشاكل لن يلتفت أحد إلينا».

أخيرًا، وبعد انتظار، مرّت بنا شاحنة تويوتا صغيرة (بيك أب)

متجهـة نحو المعسكـر، وعندما رأينـا أنها مكتظـة بالعناصر الواقفين خلفها لم نلوح لها. لكنها ما لبثت أن توقفت على مسافة منّا. نظرنا إلى بعضنـا بعضًا وابتسمنا ثم أسرعنـا نحوها. بمشقة بالغة، وجد الرفاق مكانًا لهم، لكن لم يبقَ متّسع لي، فذهبت إلى السائق وقلت له: «اذهب فقد امتلأت الشاحنة».

مـا إن رأيته حتى تفاجـأت! كان مير حسيني خلـف المقود وبجانبه اثنـان مـن العناصر. قلـت: «هذا أنت يا حـاج! لقد امتـلأت الشاحنة فاذهـب». قال متبسمًا: «هيا اركب بجانبي». فتح الباب فركبت بجانبه وأقفلـت البـاب بصعوبـة بالغـة. لقد ذكرتـه للرفاق الثلاثـة من دون مناسبة؛ فأرسله الله إلينا. ربما شاء الله أن «لا يسوَدّ وجهي أمامهم».

أنظر مـن النافذة الصغيرة إلى الخارج. أرى الشمس تشرق من ناحية بحيرة هامون. ستشرق الشمس ثانية ويشعر الناس بدفئهـا وأشعتها، لكنّ الغائب الأكبر هو مير حسيني، مير قاسم مير حسيني.

تهـبّ رياح منعشة فأحمل الورقة التاليـة لأقرأ مذكّرات «عبد العلي ميرشهركي» أمام النافذة حيث أقف:

عندما كان مير حسيني يأتي إلى كتيبة «حمزة سيد الشهداء 409»، كان يتصـرّف وكأنه في منزله. يزور جميع الخيم ويتحدث إلى الإخوة، ثم يستريح وينام في خيمة التبليغ.

كنت مسـؤول التبليغ حين حلّ مير حسيني ضيفًـا علينا تلك الليلة. استيقظت منتصف الليل، شعرت أنّ أحدهم مستيقظ. استرقتُ النظر مـن تحت البطانية. كان مير حسيني واقفًـا ويصلّي في إحدى الزوايا.

نظـرت إلى الساعــة، ما زال الوقت باكرًا جـدًا لصلاة الصبح، فعدت للنــوم مجـددًا. بعد ساعة، سمعت مـير حسيني يقرأ القــرآن، فرحت أنصــت إليه مــن مكاني. لم أستطع النهوض من شــدّة النعاس. فجأةً، هزتنــي يــد، فنهضت من مكاني. كانــت يد مير حسينــي وقال لي: «لا بأس إن نهضت قبل دقائق عدة من الأذان فتشغّل مولّد الكهرباء وتبثّ المناجاة عبر مكبّر الصوت، فلربما أراد بعضهم الاستيقاظ».

ذهبــتُ نحو مولــد الكهرباء متثاقــلاً، فشغّلته، ثــم وضعت كاسيت المناجاة بصوت منخفض على مكبّر الصوت. عندما ذهبت إلى مسجد الكتيبة رأيت التعبويين قد هبّوا للصلاة.

لقد كان تعبويّو ذلك اليوم، أي شهداء اليوم، تمامًا كـ«مير حسيني» قائد سيستان وبلوتشستان.

يتحدّث الجميع عن الأيام الأخيرة في معسكر «جنكل» فالقادة وتعبويّــو كرمان شهــر، بابك، سيرجــان، بم، زاهــدان وخاش، لديهــم الكثير من الذكريات المتنوعة والمختلفة. كتب عبد الرحيم ميرشهركي:

قبــل عمليات «كربــلاء 5»، كنا نجلس في خيمة تبليــغ «كتيبة 409». حمل أحد الإخوة آلة التصوير لالتقاط صور لمير حسيني ولنا.

وقف مقابلنا، نظّم عدسته فقال له مير حسيني:

– لا تفعل!

– أريد التقاط صورة لك مع الإخوة فحسب.

– لمــن هذا الفيلم حتــى تريد التقاط صور لي؟ اذهب والتقط صور

أصحاب الحقّ.

كان المصور يصرّ على التقاط الصور بينما مير حسيني كان يرفض ويـردّد باستمـرار أنّ هذا الفيلم من حـقّ التعبويين وليس من حقه. في النهاية قال له المصور:

– ألسـت أنا تعبويًّا أيضًا، ألا يحـق لي أن أستخدم الفيلم؟ وبما أنه يحقّ لي ذلك فأنا أريد أن أصوّرك. فهل من اعتراض؟

عندها، أُسقط في يد مير حسيني وأُجبر على الجلوس وسط الإخوة لالتقاط الصور.

قبـل بـدء العمليـات، كنـا في المعسكـر وراح الإخوة يكتبـون رسائل الشفاعة ويوقّعون على رسائل بعضهم بعضًا لتدفن هذه الرسائل معهم.

التقيت مير حسينـي في ذلك اليوم وهو يركب السيارة ليغادر، وبما أن سوق تبادل رسائل الشفاعة كان رائجًا وفي أوجه، دنوت منه وقلت:

– ما هذه الحال يا حاج؟

– ماذا، ما بك؟

– لا شـيء، الجميـع حصل على رسالـة الشفاعة إلا أنـا. لقد كنت منشغلًا ببعض الأعمال فاكتب لي شيئًا.

ضحـك وأخذ دفـتر ملاحظاتـي وكتب فيـه: «باسمه تعـالى، عبد الرحيـم شهركي ابن عم هذا الحقير. وأرجـو من حضرة عزرائيل أن يكـون واسطة بين عبد الرحيم وبين ربه، وإذا ما أُجيز لي ذلك سأكون شفيعه، مير قاسم مير حسيني».

ما زالت هذه المدوّنة بحوزتي وأرجو أن تتحقّق كلماتها.

الجميع كتب أن مير حسيني كان شخصًا مختلفًا تلك الأيام وبانت على ملامحه علامات لم نفهمها أو ندركها؛ إلى أن حان يوم 8 كانون الثاني (18 دي). الجميع ذكر أن أحواله تبدّلت. كان يتعبّد ويتحدّث بطريقة أخرى!

كتب علي آقائي:

جاء ثانية قبل بدء العمليات إلى «كتيبة 409»، جمع قادة الكتائب وتحدّث إليهم بكلمات حول الحرب. تحدّث بيقينٍ عن مولانا علي عليه السلام وتلا علينا خطبته حول الحرب. قال مير حسيني: «واجهوا وحاربوا عدوّكم بعينين مفتوحتين، وفكّين مطبقين وقدمين مغروزتين في الأرض».

وقال أيضًا: ربما هي آخر ليلة لي بينكم. غدًا، قد يُرزق أكثركم الشهادة، وربما وفّقني الله لها، وقد جئت الليلة لأطلب المسامحة منكم، إن كان لي حقّ عند الآخرين فقد سامحتهم، لكن لا سمح الله إن قصّر أحدكم في الحرب، أقسم بالله إنّني سأعترض سبيله على الصراط في الآخرة، ولن أسمح له بالتملّص من المسؤولية. لا تتهاونوا في المعركة...».

اغرورقت عيناه بالدموع، وانشغل تلك الليلة بالمناجاة والعبادة حتى الصباح. تلك الليلة...

عندها، تذكرت ما قاله «محب علي فارسي». فقد اتصلت به البارحة 10 مرات، وتحدثت إليه مرتين؛ كان يتحجّج بالعمل في كل مرة. اتصلت أيضًا مرات عدّة بمحمد حسين بودينه

وميرعباس، أخي مير قاسم، وجميعهم قالوا إنّهم منشغلون بأعمالهم، أخيرًا قلت في نفسي إنّ الجميع يعمل في هذه المدينة إلا أنا. قال محب علي إنّه سيكتب بعض الأمور؛ وحدثني بهذا:

كنت أقصّ شعر رأس مير حسيني دائمًا. في حال وجودي لم يكن يسمح لأحد أن يقصّ شعره أو يقود سيارته، بل كان يطلب ذلك منّي، وبالطبع كنا نتبادل الأحاديث أثناء ذلك. سألني في أحد الأيام قبيل عمليات «كربلاء 5»:

- هل لديك وقت لتقصّر لي شعري؟

- أجل يا حاج، تفضل!

- سآتي إليك فيما بعد.

هذه المرة وخلافًا لكلّ المرات، ذهبت بنفسي إليه وبدأت العمل. بينما أنا أسوّي له شعره، قال لي: «انتبه وقم بقصّ شعري بطريقة جيدة فهذه آخر مرة ستقصّه لي». لم آخذ كلامه على محمل الجد في ذلك اليوم، لكن بعد يومين عندما جاء نبأ استشهاده...

كتب فريدون شهركي 5 سطور فحسب:

جلسنا حول المائدة ورحنا نتحدث عن طعام الغداء الذي كنا نتناوله وعن ذكريات الماضي. فجأة التفت أحد الإخوة إلى مير حسيني وقال:

- متى ستستشهد يا حاج حتى نأكل في عزائك؟

طأطأ مير حسيني رأسه، مكث قليلًا وقال:

- عندما أصبح نقيًّا جدًا، سيأخذني إليه.

عندهـا صمت الجميع، ولم نتفوّه بكلمة إلى أن أنهينا طعام الغداء. لقد كنا نفكر بما قاله مير حسيني.

أعلـم أن مير حسيني كان يحب الحاج قاسم سليماني كثيرًا، قرأت عن ذلك في أكثر من مذكرة، حيث تحدثوا عن تلك العلاقة.

يقول الحاج قاسم سليماني عن الليلة الأخيرة:

جلسنـا في الدشمة ليـلًا وتحدّثنـا في مواضيع شتّـى. في العمليات السابقة، قلق الجميع من أن يصاب مير حسيني بمكروه، إذ قلّما خرج مـن المعـارك من دون إصابـة. قبل بـدء عمليات «كربـلاء 4» قال: «لا تخافوا لن أستشهد في هذه العمليات ولن أجرح حتى».

لكن في تلك الليلة، أشار إلى جبهته وقال: «ستصيبني رصاصة هنا وسوف أستشهد». وهذا ما حدث.

يتملّكنـي شعـور بالانقباض، فأنهض وأخرج مـن الغرفة. ليتني أستطيع أن لا أقرأ هذه الكتابات. أعلم أنّ مشوار صداقتي معـه سينتهـي هذا اليـوم، صديقي الذي عثرت عليـه في الأيام العشـرة الماضية. أحمل مذكّرات علي نجيـب زاده لأقرأها. ليت السيارة تصل باكرًا فأفرّ من هذه الغرفة:

بدأت العمليات. انطلق مرتضى بشارتي[1] مع مير حسيني إلى الخط الأمامي فقلت لمرتضى:

– انتبه، إذا أصيب مير حسيني بمكروه فاسحبه إلى الخلف بسرعة، فقد اعتاد أن يُجرح في كل العمليات.

1– استشهد فيما بعد

- حاضر.

بعـد ساعات، كنـت في الدشمة عندمـا وصل بعض المقاتلين وكان بشارتـي معهم. نظـرت إليه فبدأ بالبكاء. لم يقـف، بل خرج وناداني. خرجت إليه وسألته:

- هل استشهد مير حسيني؟

- وكيف علمت بذلك؟

- من بكائك.

قلت له لأهوّن عليه:

- هذا ليس بالأمر المحزن، فجميعنا جئنا لأجل الشهادة.

- أبكـي لأنني لم أتمكن مـن سحب جثمانه، أقسم إنّني حتى أنا لم أكن أستطيع الانسحاب...

- لا يهـم، فالإخـوة في الفرقـة يعرفونه وسوف يحضـرون جثمانه معهم.

ثم سألته:

- كيف استشهد؟

- كنا في الخندق، دارت المعارك بالسلاح الأبيض. حمل مير حسيني بندقيـة الكلاشينكوف وبدأ بإطلاق النار. قلـت يا حاج لا يفصلنا عن العراقيين غير مسافة قصيرة، فكن أكثر حذرًا، لكنه قال: «يا بشارتي، ليـس الأمر متعلقًـا بشخصي، بل بالحرب والإسـلام»، ثم قال: «شئتُ أم أبيـتُ سأصاب برصاصة، ومن الأفضل أن أصاب بها هنا». لم يطل

الوقـت حتى أصابت رصاصة جبهته. وضعتُ يــدي على قلبه.. كان قد فــارق الحيــاة. حينها لم أعـد أعي شيئًا حتــى إنّنــي لم أستطع سحب جثمانه.

قال هذا وعاد للبكاء.

خنقتنــي العبرة. فأنــا أيضًا بلغني نبأ استشهــاده، وستغدو بحـيرة الملح، الخندق المزدوج، الجسر، جميع الأسماء والأماكن والأسماء الخالدة محور حياتي. جلست ضامًّا ركبتيّ. أنا الآن في شلمتشه (شلمجه) وأقرأ مذكّرات جعفري في الخندق المزدوج:

كنا أول القوات الواصلة إلى الخندق المزدوج، كان العراقيون يفرّون فزعين نحو البصرة، وقــد امتلأت الجادة على الطرف الآخر للخندق بالدبابــات وناقلات الجنــد والآليات. تموضعنا علــى هذا الجانب من الجسر وتوقفنا.

كنــا قد جهزنــا ما يلزم لنســف الجسر حين وصل الحــاج مرتضى وقال: «لا تفجروا الجسر، فمن الممكن أن نفجر موضعًا آخر».

كان هنــاك عدد قليل من القوات في الجانب الآخر للجسر، عناصر من وحدة التخريب من دون سلاح؛ إضافة إلى نفر قليل من المشاة. لم يكن يفصل بيننا وبين العراقيين أكثر من خمسين مترًا، كانوا يخرجون مــن الدشــم ويفرّون. مــا إن وصل مــير حسيني حتى بــدأ بملاحقتهم صارخًا: «لا تدعوهم يفرّون أيها الإخوة. هيا لاحقوا فلولهم».

لم يكــن هناك الكثير مــن العناصر وإلا لكان مــير حسينــي لاحقهم إلى البصرة. أعاد العراقيون تشكيل قواتهم وعادوا. التصقوا بالخندق

المزدوج ولم نعد نستطيع التريث أكثر فنسفنا الجسر بعد التنسيق مع قواتنا. كان هناك عدد من عناصر وحدة التخريب على الجانب الآخر من الخندق المزدوج. فنزلوا إلى الماء وانسحبوا نحونا. وصل العراقيون وبدأت المعركة والاشتباكات.

قصفوا التحصينات الموجودة فوق الخندق المزدوج، فنزلت إلى أسفله حيث كان مير حسيني يوجّه القوات لتتموضع خلفه: «حافظوا على الخطّ فحسب». كنا نتحدث والرصاص يتساقط علينا من كل اتجاه فقلت له: «انتبه من الرصاص». أشار إلى الجهة اليمنى وقال: «إذا شاء الله هكذا يقتلون الإنسان».

فجأة! سقط على أرض الخندق شهيدًا. تركناه هناك ولم نخبر المقاتلين بأمر استشهاده، لأنهم إذا أدركوا أنه استشهد فسوف... .

لا أعلم كم الساعة. يعلو بوق السيارة فأنهض حاملًا الأوراق التي أحتاجها، وأجرّ أذيالي كمن يذهب إلى مكان الواقعة. أشعر بثقل حركتي وكأنني أسير في طريق موحلة! فأي يوم هو هذا؟!

أركب سيارة الـ«بيك آب». ينظر السائق إليّ من خلال المرآة فأقول له: «اذهب إلى منزل مير حسيني».

أريد اصطحاب الحاج مراد علي معنا. تنطلق السيارة بينما أنا أتصفّح مذكّرات عباس أنجم شجاع:

كان مير حسيني يضحك ويمزح بشكل متواصل. خطر في ذهني للحظة أن مير حسيني اليوم غير ذاك الذي عرفته. وقف مع مسؤول المدفعيّة (الإسناد المدفعي) في الفرقة الحاج مهدي زندي وقال له:

«الأعــداء المستقرون في هذا الجــزء يسببون لنا المشــاكل، هل يمكنك القيام بما يلزم؟».

جلس الحاج مهدي على الأرض وقال: «سأهتم بالأمر».

أنــزل سحّــاب معطف المطــر وأخرج مــن داخله مخطـط المنطقة (الكالك)، ثم أعطى الإحداثيات لمسؤول المدفعية. وبدأ قصف المنطقة التي أشار إليها مير حسيني. لم تمر دقائق حتى ارتاح بال مير حسيني، ربّت على كتف الحاج مهدي زندي، وقال ضاحكًا:

- حلالٌ عليك خبز «الفرقة 41».

ضحكنا، فالتفت نحوي وقال:

- اذهب وساعد الإخوة حيث هم عالقون.

أشار بيده نحو الساتر الترابي أمامنا فقلت متردّدًا:

- الوضع يزداد سوءًا، فالعدو مشرف على المكان..

- وهل نسيت الأذكار؟

انطلقت مع أحــد العناصر وعدنا بعد إنجاز المهمة، وهم يمطروننا بوابـل رصاصهم. عندما وصلنا إلى مير حسيني، رأيته يضحك أيضًا، فسألته:

- ما حدث ثانية يا حاج؟

- لقــد نهض العراقيــون خلفكما، كانــوا يمطرونكمــا برصاصهم، لكنّهم لم يصيبوا أيًّا منكما.

- تلوت الأذكار التي علّمتنيها.

ضحـك ومسح على رأسي، فشعرت بقـوة وجرأة. لقد تبدّلت حاله، وكان لضحكه معنى خفي...

تذكّـرت عمليات خيبر، حين توغّلت قواتنـا حتى منتصف الجزيرة وازداد ضغـط العدو علينا. كنا كمن رُمي في قلب النار. كانت القذائف والقنابل تنفجر من حولنا فتُشلّ حركة قواتنا.

كان مير حسيني قائد قوات الهجوم يجول علينا ويعطي التوجيهات. رأيت «دريجاني»[1] في ناحية، مشمّـرًا عن ساعده ليضمّد جرحًا سبّبته لـه شظية. وصلت إليه، ومـا إن رآه مير حسيني حتى قـال له ضاحكًا: «أنـزل كـمّ قميصك فقد يـراك أحد المقاتلين ويقـول إنّك رفعت كمك ريـاءً»، فضحكنـا جميعًا. وهناك بالضبـط، أوصلت إليـه رسالة قائد الفرقـة ومفادهـا: «إذا كان ضغـط الأعـداء شديدًا فاسحـب القوات للخلـف». ما إن قلت ذلك حتى انتفض قائلًا: «اذهب إليه وأخبره أننا بخير ولا نعاني من أي مشكلة».

كنـتُ علـى يقـين أن أي شخص آخر غـير مير حسينـي كان ليقول شيئًا آخر. رغم القصـف الوحشي واستشهاد أفضل المقاتلين، وضغط الأعداء الشديد، كان هذا جواب مير حسيني!

تذكـرت خيـبر ثانيةً، وعـدت إلى جانب الساتـر الترابي حيث مير حسينـي. أردت أن أقول له أن يقـرأ تلك الأذكار، لكنّ لساني انعقد ولا أدري لمَ! كانـت ضحكاتـه الغامضـة تفصح عن شيء مـا لم أدركه إلا عندما...

1- مساعد أركان الفرقة، وأضحى نجمة من نجوم السماء فيما بعد.

نصل ونقرع الباب. يفتح الحاج مراد الباب بنفسه فأقول له: «نريد الذهاب إلى الضريح». يمسك بعكازه ويخرج من المنزل بقامته المديدة وبهيبته التي شبّهتها بـ«زال»[1]، نركب السيارة وننطلق.

بعد مسافة قصيرة، تنعطف السيارة نحو طريق ترابي، تتراصف البيوت الطينية على طرفيه. الرجال والنساء في المزارع يحصدون القمح وينزعون رؤوس سنابله! تقع عيني على أرض مرتفعة عن سطح السهل منصوب عليها الأعلام الإيرانية؛ إنها المقبرة. تتوقّف السيارة وننزل منها. لا أدري لمَ أرتجف! يخطو العجوز بضع خطوات ويتوقّف فأقف. نقرأ الفاتحة معًا، ثم يسير ثانية حيث أرى سلطان علي مير وحسن بور إسماعيل قادمين. لا ألتفت إليهما ولا أستطيع أن أبدي أي رد فعل. يتّجه العجوز صوب قبور يحيط بها صف من الحجارة، يعبرها ويشير بعكّازه إلى أول قبر ويقول: «ابني، مير حسن». نجلس ونقرأ الفاتحة. ثم ينهض العجوز ثانيةً ويشير بعكازه إلى القبر التالي قائلًا: «ابني مير قاسم».

قبر متواضع، آية قرآنية واسم مير قاسم مير حسيني إلى جانب تاريخ الميلاد والاستشهاد. هذا هو لقاؤنا الأول؛ وما أصعبه من لقاء! نقرأ الفاتحة، أتمتم بالكلمات من دون وعي مني، فذهني يحلّق في مكان آخر، وتتعطّل جميع أفكاري. ينهض العجوز ويتّجه نحو قبر يحيط به سياج ويقول:

1- بطل أسطوري؛ والد رستم. سمي زال لأنه ولد بشعر أبيض، من أساطير الشاهنامة.

«صهري بهمن خسروي».

يجلس ويقرأ الفاتحة، ثم ينهض ليذهب إلى قبر آخر. أليس هذا الرجل إنسانًا؟! كم هي قدرة الإنسان على التحمّل؟! يشير إلى القبر التالي ويقول: ابنتي، زوجته».

يقصد زوجة بهمن خسروي. يجلس وتلهج شفتاه. جميع سكان هذه المقبرة يعرفونه. ينهض أيضًا ويتجه نحو آخر القبر حيث يقبع قبر صغير، بطول شبر أو شبرين!

نذهب إليه، وما إن نصل إليه حتى تخنقه العبرة، فترتجف شفتاه وهو يقول: «حفيدتي زينب، ابنة مير قاسم».

وكأنّ جبلًا أُلقي عليّ فأثقل كاهلي. أجلس عند قبر ابنة قاسم. أقرأ الفاتحة وأنظر إليه. إذًا ابنة مير قاسم ترقد إلى جانب والدها. أقرأ تاريخ الولادة والوفاة. لم تعش أكثر من 43 يومًا. أتمتم: «يا لك من دنيا قليلة الوفاء».

أنهض ويخيّم الصمت علينا، ولا شيء غير الصمت والسكوت سيّدا المكان. تهبّ رياح فتنثر الرمال في المقبرة. نجول قرب الحجارة المصفوفة كأننا في مأتم. يبدأ سلطان علي الكلام من دون أي مقدّمات:

جاء مير قاسم إلينا قبل بدء العمليات، وكنت مع دولتي مقدّم[1]. كنّا في كل مرة يستدعينا نعرف أن هناك أمرًا ما. ذهبنا إلى المنطقة، كنا في مقر قيادة الفرقة ليلة العمليات حيث صدر الأمر بالهجوم، وانشغل مير

1– استشهد فيما بعد

قاسم والحاج قاسم سليماني بتوجيــه وإرشاد قادة الكتائب المشاركة. شعرت تلك الليلة أن مير حسيني هذا غير ذاك الذي كنت أعرفه، كان سلوكه مختلفًــا. كان ينصتُ حينًا إلى جهاز اللاسلكي ويدخل الدشمة حينًا آخر لقراءة القرآن. قلّ كلامه، وإن قال شيئًا فهو لتوجيه وإرشاد الكتائــب. بقينا هناك إلى حين انبلاج الضوء. ركبنا الزورق نحو أرض المعركــة وذهبنا إلى الخط الأمامي. عايــن مير حسيني أوضاع القوات وقــدم تقريره لقائد الفرقة، ثم طلب إرســال المزيد من القوات لمتابعة العمليــات. كنا في المقر أمام قناة تربية الأسمــاك التي سيطرت عليها قواتنا، فطلب مــن القوات الاستعداد للتصدي لهجــوم الأعداء. تقدم صــفّ من الدبابات العراقية نحونا وبدأوا بقصفنا، التفت مير حسيني نحــوي أنا ودولتي مقــدم وقال: «اصعدا إلى الأعلــى وارمياها بقذائف الـ«آر بي جي».

صحيــح أننا «بريد»[1] مير حسيني الخاصّــين، إلا أنّنا كنا على أهبة الاستعداد للقيام بمــا يطلبه منا عندما تستدعي الضرورة. كان دولتي مقــدّم يجهز القاذف وأنا أقوم برميــه. وبسبب اشتداد القصف، كنت أُلقــم القــاذف أسفل الساتــر الترابي ثــم أتسلّقه لإطــلاق النار. بعد حــوالي 8 قذائــف، علا صــراخ دولتي مقــدّم. فبسبب دنــوّه منّي حين إطلاق القذيفــة، احترق جزء من وجهه. صعــدت ثانية لإطلاق النار، لكنّــي شعــرت فجأة أنني معلّق في الهواء ثــم ارتطمت بالأرض. لم أعد قــادرًا على التنفس وشعــرت أنني أفارق الحيــاة. نظرت بطرف عيني إلى الساتر الترابي، فرأيت حيث كنت أقف حفرة كبيرة سبّبتها قذيفة دبابــة. لم أستطع الحركة، فقد تلاشت إحــدى قدميّ وكُسرت الثانية،

1– ساعي بريد أو مرسال.

واستقرت تحت جسدي. حين كان مقاتلونا ينسحبون جاء أحد عناصر فرقة كربلاء 25 إليّ.

عندما رأى حالي قال:

- قل يا زهراء.

ظنّ أنني ميت لا محالة، فقلت له:

- إذا أمكن ساعدني لأنسحب إلى الخلف.

سمعت صوت مير حسيني حين كنت أنظر تجاه قواتنا، وكان صوته يبعث فيّ الأمل. لم أدر أين هو، لكنّ صوته منحني القوة. مرّت بضع دقائق قبل أن أسمع صوت دولتي مقدّم وقد صعد أعلى الساتر ينادني، فصحت بأعلى صوتي:

- إبراهيم... تعال إلى هنا.

سمع صوتي وجاء. كان قلقًا عليّ وقال:

- لقد أرسلني مير حسيني بحثًا عنك.

لم أستطع الحركة، وجاء بور إسماعيل أيضًا فحملاني وانطلقا. كانت قدماي متدليتين وتتأرجحان. بعد أن قطعنا مسافة، بدأت دبابات العدو بإطلاق النار علينا، فسقطنا على الأرض. أمسك دولتي مقدّم بذراعي وسحبني باتجاه قواتنا. وصلنا إلى الخندق حيث اجتمعت قواتنا فرأيت مير حسيني، وعندما مرّ بالقرب مني ضربت على قدمه بكفي. نظر إليّ فقلت: «يا حاج..».

لم تدعني نظراته أكمل ما أردت قوله، كانت نظراته تلك مختلفة

عـن نظراتـه السابقة. كانت نظـرات محبة وشفقة، نظـرات انفصال وفـراق. لم يقـف، بل ذهب وطلـب من عنصرين آخريـن أن يحملاني إلى الخلـف. ومن ثم نُقلـت إلى مستشفى شهداء تبريز. في أحد الأيام رأيت أحـد التعبويين في الفرقة يبكي بحرقة. وقـد أخبرني باستشهاد مـير حسيني. حينها فقط، أدركت مغزى تلك النظرات. بكيت، إذ كان البكاء عليه مباحًا حقًا.

يتابع حسن بور إسماعيل الكلام:

مضـت ساعة على بدء العمليات. وضعت الدراجة النارية بمشقة في الزورق، واتجهت نحو خـطّ العراقيين الذي يفصلنا عنه مساحات من المـاء، وصلت إلى الضفـة وأنزلت الدراجة بصعوبـة أيضًا. لا أدري في تلك اللحظات التي يواجهنا فيها العراقيون ما حاجته للدراجة. ذهبت إلى الأمام ووجدته وما إن رآني حتى قال:

- هل ترى الساتر الترابي ذاك؟

أشار إليه قائلًا:

- لقد تموضعت قواتنا هناك، فاذهب لترى كيف توزّعوا، وأخبرني بالأمر.

أدرتُ محـرّك الدراجـة وانطلقت حيـث أشار. لم أجـد أحدًا على الساتـر الترابي لكنني رأيت عراقيًا يقف خلـف الساتر. عندما ناديت عناصرنا انتبه العراقي لوجودي، لم يعد بوسعي البقاء فعدت أدراجي. وصلت إلى مير حسيني وقلت له:

- لا أحد في الساتر الترابي غير العراقيين.

– لا ! أنت لم ترهم إذًا، سنذهب هذه المرة معًا.

جلس على الدراجة خلفي وانطلقنا. بحثنا على طول الساتر الترابي لكننا لم نجد أحدًا من عناصرنا. قال مير حسيني: «سأبقى هنا، اذهب واستدعي بعض العناصر».

عندما عدت كانت «كتيبة 414» في الخط، وصلت إليهم وقلت: «أسرعوا في التقدّم، فقد ذهب مير حسيني إلى الأمام».

كان الشهيد «علي بينا» قائد تلك الكتيبة، ما إن قلت إنّ مير حسيني هناك حتى نهرني قائلًا: «ولِمَ تركته حيث يوجد العراقيون؟».

كانت القوات تقف قرب الخندق المزدوج لا تجرؤ على التقدّم لاعتقادها أن العراقيين هناك. لكن ما إن أعلمتهم بالأمر حتى انطلقوا إلى الأمام. كان ضوء الصباح قد انبلج تمامًا عندما ثبّتنا تموضعنا في الخط. عبرت قوات «الكتيبة 414» الخندق المزدوج، وكان الأعداء يفرّون من أمامهم. لم تكن عناصرنا قادرةً على ملاحقتهم، فكان مير حسيني يردّد باستمرار: «ليتنا امتلكنا دراجتين بدل الواحدة».

استمرت المعارك فقال لي مير حسيني: «اركب لنذهب ونستطلع أماكن وجود العراقيّين».

عبرنا ساترين ترابيين ووصلنا إلى حيث تموضعت القوات العراقية. كانوا بضعة أفراد، ما إن رأونا حتى رفعوا أيديهم مستسلمين وتقدّموا نحونا. نزل مير حسيني عن الدراجة وربط أيديهم بملابسهم ثم أشار إليهم للذهاب إلى خلف الخطّ. ذهب العراقيون واستكملنا استطلاع المكان ثم عدنا للخلف. طلب مير حسيني أن أنقل رامي «آر بي جي»

وكيسًـا مليئًا بالقذائف على الدراجة إلى نقطة محددة. كان العراقيون قـد اقتربوا وبـدأوا هجومهم. تمكّن رامـي الـ «آر بي جـي» من إصابة دبّابتـين عراقيّتـين، لكنهـم تابعوا تقدّمهـم وأصبحـوا خلفنا. في تلك المعمعة والضوضاء سمعت صوت مير حسيني عبر مكبر الصوت يطلب منا الانسحاب.

هناك، شعرت أنّ مير حسيني يقوم بعمل كتيبة كاملة. لقد تموضعت قواتنا في الخلف، بينما معاون قائد الفرقة يحارب في المقدّمة نيابة عن الجميع. زاد ضغط العدو علينا فكنّا نتراجع خطوة خطوة نحو الخندق. قلت لمير حسيني:

– لقد وصل العراقيون يا حاج!

فنظر إليّ ببرودة أعصاب وقال:

– يجب أن ينسحب الجميع قبلي وقبلك.

في تلك الأثناء ضاع سلطان وانتبهت لسقوط قذيفة دبابة حيث كان يقف.

سألني مير حسيني:

– أين سلطان؟ هل انسحب أم هو في الأمام؟

– لا أدري؟

أرسـل جميع العناصـر إلى الجهة الأخرى من الخنـدق، وكنا آخر المنسحبـين. عندما صعدت أوّل دبابة عراقية الجسر، أمر مير حسيني وحدة التخريب بتفجيره. في تلك الأثناء قال الحاج قاسم سليماني عبر جهـاز اللاسلكـي: « يجب تنفيذ أوامر مير حسينـي كاملة». كنا نبحث

عـن سلطان في هذا الجانب من الخندق، فمن جهة كانت هناك قرابة بينـه وبين مير حسيني، ومـن جهة أخرى، كان يأنـس أحدهما بالآخر بشكل عجيب. قال مير حسيني لي:

- دع كلّ شيء وأحضر لي سلطان.

كما إنّه استعدّ لعبور الماء والبحث عنه فلم أسمح له، فقال:

- لن تستطيع ذلك وحدك!

اصطحبـت معـي إبراهيم دولتي مقـدّم[1] للبحث عنـه. عبرنا الماء حيث كان يرشدنا عبر مكبر الصوت ويردد الهتافات الحماسية منوّهًا بالشجاعـة والشهامة. تموضـع العراقيون على مسافـة منّا في الساتر الترابي، بعد أن عبرنا الخندق وجدنا سلطان قرب الساتر وقد تلاشت أجزاءٌ من جسده، إذ انفجرت قذيفة دبابة بالقرب منه، وقد استدارت إحدى رجليه أعلى الركبة 180 درجة، بينما سحقت ساقه الأخرى أسفل الركبـة. دنونـا منه فأصرّ علينـا أن نعود قائلًا بأنـه ميت لا محالة ولا داعـي لتعريض حياتنا للخطر لأجله. فقلت له: «لقد طلب مير حسيني منا إحضارك، فإما أن نذهب معًا أو لن يذهب أيٌّ منّا».

حملتُـه على ظهري، وحمل دولتي مقـدّم ساقيه. كان وضعه مزريًا. تناسينـا قصـف الأعداء، وكنا نصغـي فقط لمكبّر الصـوت. كان مير حسينـي يقول: «لقد بيضتـم لي وجهي.. وأثبتت يا بـور إسماعيل أنك من المخلصين».

حملنا سلطان إلى جانب الخندق وأمر مير حسيني المقاتلين بإطلاق

1- استشهد فيما بعد.

النــار على المهاجمين بكلّ ما أوتوا من قــوة، ثم جاء نحو الحصن مكان وجودنا. أمسكت مع دولتي مقدّم بقدمي ويدي سلطان ورميناه في الماء من الجانــب الآخر للحصن، وذهب دولتي مقدّم وراءه في الماء، بينما بقيت وحدي خلف القناة. شعرت بالخوف فقد اشتد قصف العراقيين علينا. أردت النهوض والقفــز إلى الجانب الآخر فلــم أستطع، كأنما تجمدت يــداي وقدماي. كنت أرى العراقيين قادمين نحوي، وكان بإمكانهم قتلي لكنهــم على ما يبــدو أرادوا أسري. جاء مير حسينــي من خلف القناة، ورمــى نحوي، بقماشة تشبه الحبل وأصرّ علــيّ لإمساك طرفها. لكنني لم أستطع! حتى إنّني عجزت عن رفع ذراعي. وكآيسٍ من الحياة، بدأت المناجــاة والدعاء. كنت أقول: «إلهي! لقــد جئتُ طاعةً لأمر قائدي، وإن تقرّر بقائي هنا فبأمر منه أيضًا، فقائدي هو مير حسيني».

لا أدري مــاذا حــادث إذ لهــج لساني بذكــر «يا حســين» حينها. ولا أدري كيــف أصبحــت على الجانب الآخــر للقناة. أمســك مير حسيني بيــدي وساعده عنصر آخر وعادا بي إلى حيث توجد قواتنا. بعد حوالي الساعتــين، استعدتُ قواي وهدأ الخطّ وتموضع العراقيون على الجانب الآخــر من القناة في مقابلنــا تمامًا. طلب مير حسيني مني البقاء حيث أنا، وقال إنّه سيذهب للخطوط الخلفية ليرسل قوات جديدة إلى الأمام.

كان بشارتــي عامــل الإشــارة الخاص به برفقته، لكــن ما إن خطى بضــع خطوات حتى استدار وقال لي: «سأرســل لكم كتيبة زابل». وضع الرفــاق حمــالات الجرحى قرب جــدار القناة المتموضعــين فيها. كنت مستغرقًا بالتفكير عندما جاء أحدهم وسألني: «هل لديك حمّالة؟».

– لِمَ تريدها؟

- أحتاجها لأمر

عندمـا سألته ثانيـةً، أخبرني باستشهاد مـير حسيني، وطلب مني عدم إخبار أحد بالأمر.. وهكذا رحل قائدنا.

تهـبّ ريح قويـة، فننهض من دون أن ينبس أحد ببنت شفة. يخيّم الحزن علينا. نركب السيارة. مذياعها مشغّل. ينزل كلّ منا في ناحية، وأنزل أنا إلى سجن وحدتي. أدخل الغرفة وأقفل الباب على نفسي. إذ كان عليّ البقاء وحيدًا في هذه الأرض الغريبة.

أخـرج مـن الغرفـة ليـلًا وقد عـمّ الظـلام المـكان وتضجّ في قلبـي أحـزان ليلة الوحشـة. ليت أحـدًا يطل علـى دار الأحزان هـذه. أبحث بين الأوراق وأجـد مذكّرات «محمد حسين بودينه» المشغـول كثيرًا والذي يتولّى مسؤوليـة كبيرة، وقد تأسف لأنه لم يجـد الفرصة لتدوين جميع ذكرياتـه. أقرأ ما كتبه في بضعة سطور عن اليوم الأخير:

في صبـاح يوم عمليـات «كربـلاء 5»، وُفّقنا للوصـول إلى الأهداف المحددة، وتهيّأت الأرضية اللازمة للقضاء على فلول الأعداء ودباباتهم. قـدتُ كتيبـةً إلى الأمـام وانشغلنا بالدفـاع. كنت أرسـل التقارير لمير حسيني الذي كان يقاتل إلى يسار خطّنا، وطلبت منه أن يمرّ بنا عندما ينهي عمله.

لم يطـل الوقت حتى جاء علـى دراجة نارية. عندمـا رأى إنجازات قواتنا فرح كثيرًا، فضمني إليه وقبلني وهو يكرّر: «أحسنت صنعًا».

وقفنا وتحدثنا عن ترتيب أوضاع الخط، كان من المقرر أن تستكمل

الكتيبـة التالية المهمة، لكنّها لم تصـل في الوقت المحدد. مهما اتصلتُ بهـم لم أحصـل على جـواب. قال مير حسينـي إنّه سيذهـب ويحضر الكتيبـة لتثبيت الخـط. ركب على دراجة وابتعد عنـا حوالي 200 متر، وانصرفت أنا إلى عملي. وكما أخبرني الإخوة فقد أصيب برصاصة في جبهته في تلك اللحظة. عندما سمعت الخبر شعرت أن قلبي سيتوقف.

مـا زلت أذكر وداعه الأخير وفرحه، وقوله وتأكيده على تقدير عمل المقاتلين. طابت ذكراه وطاب ثراه.

أعـود إلى غرفتي. كان عليّ تَوضِيبُ باقي الأوراق في العلبة الكرتونية الثالثة، وقراءة بضع ورقات أخيرة. المذكّرات الأولى كانت لعبد العلي ميرشهركي:

كان مـير حسيني يأتي صباح كلّ عمليـة إلى الخط الأمامي، يعانق التعبويين فردًا فردًا، ويهتم بأمر تجهيز الخط. كنّا نستمد الروحية من رؤيته، ويُطمئن قلوبنا. في عمليات «كربلاء 5»، عبرنا الأسلاك الشائكة والعوائـق المائية وحقول الألغام وغيرها. بعد وصول كتيبتنا إلى منطقة العمليـات، تبادلنا المواقـع مع الكتيبة الموجـودة في الخط، فعادت تلك الكتيبـة إلى الخلف بينمـا تابعت «الكتيبة 409» المهمـة. طهّرنا الجزء الشرقـي لقناة الأسماك وتابعنا التقدّم، فقُتـل عدد من الأعداء وأُسر عدد آخر. تموضعنا في الخط الجديد، وحسب ما خَبرته من العمليات، كنـت بانتظار مجيء مير حسيني فلم يأتِ. بـدأ الإخوة بالتساؤل حول سبـب عدم مجيء مير حسيني إلينا، قال بعضهم من المؤكد أنه أصيب بمكروه؛ وإلا فمن المستحيل أن لا يأتي!

بقينـا في المنطقـة بضعة أيـام وعيوننـا شاخصة تترقّـب وصوله.

بعـد عودتنا للخطـوط الخلفية أخبرونا بأمر استشهـاده. لقد رحل أبو التعبويّـين في سيستان وأبو جميع الرفـاق في الفرقة. ما زالت ذكريات الماضـي تتداعى في ذهني إلى الآن؛ مـن أيام معسكر «جنكل» إلى زابل وجزنيك وغيرها. لقد انتهى كلّ شيء...

لم يكـن «يوسـف كيخـا» موجـودًا لحظـة استشهـاد «مـير حسيني»، لكنّه تحدّث عن لحظة سماعه النبأ:

كانـت الساعة 11 صباحًا من يـوم 8 كانون الثاني[1]، في تلك الساعة تمكـن لواء الإمـام جعفر الصادق عليه السلام مـن السيطرة علـى مقر أحد ألويـة الأعداء، وعلـى الفور وصل الخـبر إلى الخطـوط الخلفية. بعد دقائـق، وصل مـير حسيني راكبًا علـى دراجة نارية. نـزل عنها وضمّ إليـه التعبويّين فـردًا فردًا وقبّلهم. ثم جاء وأخـذ مني المنظار وانشغل باستطلاع المنطقة. وقفت بجانبه، كانت قوات الأعداء تتحضر للهجوم، تتقدّمها القوات المؤلّلة ومن خلفها المشاة.

نزل مير حسيني عن الساتر الترابي بسرعة، نظّم القوات وأوكل إليهم المهـام. كما تابع بنفسه أمر إيصـال الذخائر والعتاد للقوات المتقدّمة. كان الأعـداء في حـال تقـدّم فاستدعـاني إليه وطلب منّـي اصطحاب عـدد من العناصر للانقضاض على خاصـرة القوات المهاجمة. ناديت العناصـر وانطلقت. بعد مسافة قريبـة، أُصبت بشظية، حيث انفجرت قذيفة هـاون بالقرب منا، فألفيت نفسي ممـدّدًا على الأرض يحملني اثنـان من عناصر إسعـاف مركز الطوارئ في الخـطّ الخلفي. التقيت بإبراهيـم دولتي مقدّم ساعي بريد مير حسيني وسألته عن أحوال مير

1- 19 دي.

حسينـــي فلم يقل شيئًا، لكننـــي شعرت أنه يخفي عنـــي أمرًا. فيما بعد علمت أن مير حسيني قد استشهد.

آخـر مذكـرة كانـت لـ«اسفنديار مـير»، هو أيضًـا لم يكن ذلك اليوم في «شلمتشه»:

كنـت في خـط الفاو عندمـا بدأت عمليـات «كربـلاء 5»، فأسرعت نحو منطقـة العمليات، وعلمت في معسكر «جنـكل» أنّ مير حسيني قد استشهد. انقلبت أحـوال المعسكر وكأننا في يوم عاشوراء. كان الجميع يـذرف الدمـع، وكانت مراسـم الدعاء تقـام كلّ ليلـة في أنحاء عدة، فيـذرف الإخوة الدمـوع وينتحبون. شعرنـا بفراغ عجيـب في الفرقة، وأُخبرنـا بتجمّع الكتائب في مسجد الفرقـة. ذهبنا إلى هناك فتحدث الحـاج قاسم سليماني عن مير حسيني، كانت الجدران والأبواب تبكي وتنوح لبكاء الإخوة. يا له من يومٍ عجيب.

أوضّـب الأوراق وتعـود الغرفـة كما كانت في اليـوم الأول. أتمدّد حيث أنا ولكن أنّى لي النوم.

جوهرة هامون

الفصل العاشر

منتصف الليل، أستيقظ وأنتظر انبلاج الفجر، فاليوم سأغادر هذه الديار. لقد جئت في أثر رجل غريب عني لأتعرّف إليه هنا وأذرف الدموع لاستشهاده، وها أنا أغادر والحزن يلفّني. إنه اليوم الأخير لي هنا.

من بعيد يتناهى لسمعي صوت أذان، أصلّي وأنطلق نحو جزنيك. أريد توديع الجميع. يقولون لي: «تريّث ريثما تصل السيارة»، لكنني أرغب بالمشي قليلاً. لا أدري كم ساعة مضت وأنا أمشي. أصل وأقرع الباب، فتفتح لي فتاة. أسألها: «هل أنت زينب؟»، لكنّها تسرع إلى الداخل ويأتي الحاج موسى لاستقبالي، ندخل معًا وأخبره عن سبب زيارتي. نجلس ويحضّر الحاج مراد علي الشاي فيُخجلني. يقول الحاج موسى:

في 8 كانون الثاني اتصل بي، تحدثنا قليلاً، وشعرت أنه يخفي عني أمرًا ما، لكنه لم يقل شيئًا. بعد اتصاله ذهبتُ إلى جبهة سومار حيث تقرر القيام بعمليات كربلاء 6 في المنطقة. بدأت العمليات لكنني كنت أستمع إلى الراديو باستمرار لأعرف أخبار جبهة الجنوب حيث بدأت عمليات «كربلاء 5» هناك. كنت في مركز آمر المدفعية عندما جاءت سيارة جيب من مقرّ «الفرقة 88». عند غروب 15 كانون الثاني،

ركبت السيارة وانطلقنا نحو المقرّ. هناك، كان رئيس تفتيش الفرقة بانتظاري، ما إن رآني حتى أعطاني ورقة الإجازة وقال:

- اذهب في إجازة!

- لقد عدت من الإجازة منذ 4 أيام فحسب..

عندما طال سكوته قلت:

- يشارك اثنان من إخوتي في عمليات «كربلاء 5»، فأخبرني إن حدث لهما مكروه.

- لا، لكن قائد الفرقة قرّر إعادة ما تبقّى من قوات إلى مقرهم الأساسي، لذا عد، هناك بعض الأمور التي يجب أن تهتم بها.

كنت أتوقع سماع خبر مشؤوم عن مير قاسم منذ عمليات «رمضان». لكن ذلك اليوم انشغل ذهني بأخي الآخر فقلت له:

- أنت تعلم معنوياتي جيدًا، أنا على استعداد لسماع خبر استشهاد أخويّ. فأصدقني القول.

- برأيك من منهما استشهد؟

- مير قاسم؟

- لا، أبعد الأفكار السيئة عنك وانطلق بسرعة.

ذهبت إلى كرمانشاه، حيث كانت المدينة خاوية. توجهت إلى مسجد الأتراك محل اجتماع المقاتلين، ومن هناك اتصلت بالمنزل. رفع السماعة أحد الأقارب، ولم يخبرني بدايةً بالأمر، لكن بعد إصراري قال إنّ مير قاسم قد استشهد وسوف يشيّعونه في كرمان بعد يومين. كانت

جميـع المحلات والإدارات مغلقة في المدينة بسبب القصف. بقيت ليلتي هنـاك، لكنني لم أستطع النـوم، لقد سمعت صـوت قصف الطائرات مرتـين أو ثلاثًا. كانت ليلة شاقة، لم أستطـع فيها إطباق جفنيّ لحظة واحدة. عند الصباح، لم أجد سيارة تاكسي فركبت الحافلة وجئت إلى «كنكافر»، ومنها إلى همدان، ومن هناك إلى قم. تنقّلتُ من مدينة إلى أخرى، وركبتُ الحافلة عند نقطة شرطة سير كاشان ـ زاهدان.

وصلـت في الصبـاح الباكر إلى كرمان، وقد جـاء عدد من الأقارب والمعارف. سُجّيت في إحدى الساحات توابيت 60 شهيدًا؛ يتقدّمهم مير قاسم. هناك رأيت أخي.

يجتمـع أهـل المنـزل حولـه وكأنّ التاريـخ يعيدُ نفسـه أمام أنظارهم. تقول أخته، مرضية مير حسيني:

كنـتُ أعدّ الخبز في المنـزل، وكان الهواء باردًا في الخارج، فمنحتنا النـار دفئًـا مناسبًـا في الداخـل. كانت الموسيقـى الثوريّـة تُبثّ عبر الراديو، فالعمليات قد بدأت قبل بضعة أيام. كنت أنا وزوجة مير قاسم نتساعـد على أعمال المنزل، مع أنها كانت على وشك الولادة إلا أنها لم تكـن لتقصّر في عملها، حتى إنّنا كنا نطلب منهـا باستمرار أن تخفّف من العمل والحركة.

في ذلـك اليـوم، ونحن علـى تلك الحـال، جاءنا نبـأ استشهاد مير قاسم؛ كأنّ رصاصةً اخترقت قلبي. كنت أتلوّى من شدة الحزن وألطم علـى صـدري وانعقد لسـاني، كأنّ زلـزالًا وقع فقتل الجميـع ودمّر كلّ شـيء. دائمًا مـا أتذكّر مير قاسم وطفلتـه التي وُلدت يتيمـة. أتذكره وأتذكر كلامه لي: «كوني صبورة يا أختي وواسي أمّنا». أتذكره وزوجته

التي كانت تتلوّى وتنتحب. أتذكر مير قاسم و...

يتدفّق الدمع من مقلتيّ، لكنّي أتماسك. لم تكن أخت مير قاسم الثانية موجودة في سيستان آنذاك. تتحدّث بهدوء:

كنت في المنزل عندما رن جرس الهاتف ورفع زوجي السماعة. كانت العمليات قد بدأت، وكنا ننتظر خبرًا في أي وقت. شعرتُ باضطراب، وفجأةً تغيرت ملامح زوجي. رمى سماعة الهاتف وجلس في مكانه. ثم أشعل سيجارة وبدأ ينفث دخانها. رفع أحد أبناء مدينتنا الذي كان في زيارتنا ذلك اليوم سماعة الهاتف وتحدّث.

ما إن وضع سماعة الهاتف في مكانها حتى سألته باضطراب عن الأمر. انتظرت جوابًا، لكنّ أحدًا لم يتفوّه بكلمة. أقسمت عليهما بأن يخبراني ما الأمر، فقال الضيف: «لا تنزعجي. لم يحدث شيء. لقد وقع حادث اصطدام لأخي زوجك. فلنذهب إلى زابل».

نهضت مسرعة، لا أدري ما العمل. كنت مرتبكة لكنني جهّزت نفسي كيفما كان وانطلقنا. وصلنا في الصباح الباكر إلى زابل، وذهبنا إلى منزل أخي زوجي الآخر. أصررت عليهما أن يخبروني بما حدث، كنت أشعر من نظراتهم أنهم يخفون أمرًا. قلت:

– حتمًا حدث مكروه لأحد أخوي ولا تريدون إخباري بذلك.

حاولوا تهدئتي لكنّ صبري نفد، فنهضت وذهبت إلى منزلنا. هناك، رأيت مشهدًا جعلني أدرك كل شيء. كانت أختي وزوجة أخي مير قاسم تجلسان متقابلتان وتبكيان بكاءً مريرًا. وقفتُ مذهولة أنظر إليهما، وكأنني صُعقت بالكهرباء. سمعت خلال بكائهما اسم

مير قاسم فسقطت أرضًا ولم أعد أعي شيئًا. بعدها، لم يعد من شيء سوى اسم مير قاسم والدموع وجبال من الحزن والغم. كاد قلبي أن ينخلع حزنًا عليه.

في اليوم الثالث لاستشهاد مير قاسم، ولدت طفلته. فشعرنا وكأنه عاد للحياة ثانية. كان مير قاسم قد أوصى بأن نسمي الطفل إن كان ذكرًا «حسين» وإن كان بنتًا «زينب».

ذلك اليوم، تناقلت أيدي العائلة زينب. شممنا فيها رائحة مير قاسم. كانت نفس مير قاسم، وفي غيابه أضحت سلوتنا وأمل عائلتنا.

مضى أربعون يومًا على استشهاد مير قاسم. قال أخي إنه سيصطحب زوجة مير قاسم مع العائلة إلى زاهدان ليبتعدوا عن أجواء المأتم والأحزان. في اليوم التالي ذهبوا إلى زاهدان.

اجتمعوا في المنزل ليلًا يشاهدون التلفاز وفي وقت متأخر من الليل وضعوا الفراش لزوجة مير قاسم وابنتها زينب في الغرفة المجاورة. عند الصباح استيقظوا فزعين على صوت صراخ أم زينب...

لقد انهار كل شيء وانتهى بالنسبة إلى العائلة. لقد قصم حزن فراق وديعة مير قاسم الوحيدة ظهورنا. كان لفراقها لوعة فراق مير قاسم نفسها. أضحت زينب كل أملنا من بعده. كنا نراه في نظراتها ونسمع رنين صوته في بكائها. أضحت كل شيء بالنسبة إلينا، لكنها لم تبقَ.

أنهض وأجهّز تذكرة السفر إذ لم يبقَ متّسع من الوقت لحلول الظهيرة. أودّع الجميع وأعانق مراد علي، «زال» سيستان الذي

تفوح منه رائحة القمح، رائحة النقاء والصفاء والشهامة.

تقـف والدة مير قاسـم في الخـارج متّكئةً علــى عكازها تنظر إليّ. أقول بصوت عالٍ إنّني جئت لوداعهم. تُفهمني من نظراتها أنهـا لم تفهم ما قلته. أحنـــي رأسي أمامها. ليتني أستطيع تقبيل يدهــا، فهي أمي، أمّ سيستان. وظهرها المقوّس يوحي أنها عانت ألم وحــزن فـراق أبناء هذه الديار، جميع أبنــاء هذه الديار. من سهراب إلى مير قاسم.

أخـرج من منزلهم وأصل إلى السيارة؛ إنها شاحنة البيك أب ذاتهـا. أركب وألــوّح بيدي للجميـع وأنطلق. يعطينـــي السائق ورقة، إنّها مذكّرات محبّ علي فارسي:

مــن سمات عائلة مــير حسيني المميزة، الصــبر اللامتناهي، وكما يقــول كبارنــا: «الصبر علامة الإيمــان». وإيمان الحاج مــراد علي هو الــذي رفع بنيان هذه العائلــة وأحكمه. تعرضت هــذه العائلة لعددٍ من الحــوادث خــلال مسيرة حياتها، وأقول بكل ثقة لــو أن ربّ هذه العائلة كان غير والد مير حسيني لتلاشت، وهذه الحادثة التي سأقصّها عليك خير دليل على ما أقوله.

كان مــير حسينـــي قد تزوج منـــذ 4 سنــوات لكنّه لم يُــرزق بأولاد. وخــلال تلك المدة في الجبهــة، احتاج الحرس للعناصــر من أجل تفقّد وحراسة المطار، وبما أن زوجتــه كانت تقضي أوقاتها وحيدة، اقترحوا علــى مير حسينـــي أن تعمل زوجته هنـاك فوافقــت. شاركت الزوجة في دورة تدريبية وبدأت عملها في الحراسة.

في عمليــات والفجر 4، استشهد صهر العائلة السيد بهمن خسروي،

فبقيت زوجته وابنهما «قائم» وحيدين، لذا أحضرهما مير حسيني إلى منزله لكي لا يشعر أحد بالوحدة في غيابه.

في إحدى الإجازات، اصطحب مير حسيني عائلته لزيارة مشهد المقدسة وفي طريق العودة انفجر إطار سيارة التويوتا ستيشن التي كانت تنقلهم فانحرفت عن الطريق وتهورت. أصيب والده الحاج مراد علي في عنقه ونقل إلى مستشفى في زاهدان للمعالجة.

في ذلك الوقت، عندما عاد مير حسيني إلى المنزل في إجازة، حملت زوجته السلاح ممازحة وصوبته نحو أخت مير حسيني فانطلقت الرصاصة وأصابت رأس الأخت وقتلتها على الفور. كانت حادثة مريرة، لكن «مراد علي» تحمّلها بصبر وأناة. بعد مدة أصبحت زوجة مير حسيني حاملًا واستشهد هو في عمليات «كربلاء 5».

الاعتقاد بالحظ الجيد والحظ السيّئ موجود في كل المجتمعات. فكيف إذا كان هذا المجتمع في قرية منغلقة تسري وتنتشر فيها مثل تلك العقائد بكثرة؟! كان يمكن لتلك الحوادث المتتالية أن تحرف أذهان أفراد العائلة لا سيما الحاج مراد علي، لكن هيهات أن يحدث ذلك.

ولدت طفلة مير حسيني في اليوم الثالث لاستشهاده، كان مير حسيني قد أوصى بتسمية المولود إن كان ذكرًا «حسين» وإن كانت بنتًا «زينب».

عندما انتهت مراسم الأربعين اصطحب الأخ الأكبر لمير قاسم الزوجة وطفلتها زينب إلى زاهدان. كانوا يشاهدون فيلمًا سينمائيًّا على التلفاز في وقت متأخر من الليل. قال مير عباس: «منتصف الليل سمعنا بكاء زينب فأيقظت زوجتي وطلبت منها أن توقظ والدة زينب لترضعها. كنت أعلم أنّ نومها عميق. في تلك اللحظة انقطع صوت

بـكاء الطفلة فعدنا للنوم. عند الصبـاح، استيقظنا على صوت صراخ أم زينـب. أسرعنـا نحو الغرفة حيث رأينا زينب بوجـهٍ أزرق مائل إلى السـواد. كان النعاس قد أثقل الأم عندمـا كانت ترضع طفلتها فنامت عليها و...».

أعلم كيف تؤثر همزات ولمزات الآخرين على إيجاد أجواء التشنج، لكن الحاج مراد لم يتأثر بذلك. بل كان كالأب لزوجة مير قاسم، وكان يراعيها كابنته تمامًا. لقد أسكنها في منزله، وكان يهتم بها أيما اهتمام.

بعد مدة، جاء ابن خالتها لخطبتها، لم يقف الحاج مراد علي عائقًا في وجهها، بل وأعطاها كل ما هو متعلق بمير قاسم وأقام لهما مراسم جيدة.

إنّ نقـاء وصفاء روح الحاج مراد علي وعدم تأثره بالعقائد المغلوطة جعلـه يسـير عكـس التيار ليبـيّن للجميع كيـف أصبح مـير قاسم مير حسيني على ما هو عليه. أجل كان وجود مير قاسم مدينًا لهذا الأب.

نصل فأقـول للسائق انتظرني ريثمـا أحضر حقيبتي. كانت غرفتي مرتبة. الورقة التي لم أضعها في علبة الكرتون بعد، هي مذكّـرات اسفنديار. أبـدأ بقراءتها. أرغـب أن أستغل كل لحظة لمعرفة المزيد عن هذا القائد:

في ذلك اليوم، كنـت خلف الرشاش طوال الوقت، كنت عندما يعلق سلاحـي أتنـاول سلاحًا آخـر. كنّا نحفـر المتاريس بأيدينـا وأظفارنا ونصـد الأعداء. حتى إنّنا أخذنا مخـازن أسلحة الشهداء لنستخدمها في القتـال. كنا كمن انقطع عـن هذه الدنيا ولم يبقَ لنـا من أمل سوى

مشهـد مير حسينـي الراقد علـى بعد خطوات منـا. وإذا مـا تعبنا أو أحسسنـا بانهيـار، اتّجهنا بأنظارنا نحـوه، نتحدّث إليـه ونستمد منه الروحية والمعنويات.

في إحدى المرات، اقترب الأعداء منا كثيرًا ولم يكن يفصلنا عنهم أكثر من 5 أمتار. كان مشهدًا عجيبًا. لقد رأيت الإخوة قد يمّموا وجوههم شطر مرقد مير حسيني حامل لواء فرقتهم، مرارًا وتكرارًا ليستمدّوا القوة منه وليعاهدوه على عدم السماح بتقدم الأعداء. ألصقت صدري بالرشاش ورحتُ أطلق النار وأكرر العهد: «مير حسيني! أقسم بالله لن أدع الأعداء يتقدمون إلى هذا الجانب من الساتر الترابي».

كان مير قاسم مير حسيني في تلك الأيام التي عجنت بالنار والدماء، الداعم والسند الوحيد لرفاق الفرقة في غربتهم ووحدتهم تلك. كان لرحيله حُرقة في قلوب الجميع. شعر الجميع باللوعة لفقده، من الحاج قاسم سليماني إلى التعبويين. فقد كان مير حسيني أمير فرقة ثار الله. كان مير حسيني عباس كربلاء وسقّاء الإخوة في الفرقة. كان رجل لحظات الوحدة وأيام الحصار. كان مير حسيني...

سأقول هذا فقط. كان مير حسيني، هو مير حسيني فحسب.

أضع آخر ورقة في العلبة الكرتونية وأغلقها.

عنـد الظهيرة، آخـذُ ورقةً وأبـدأ الكتابة: «سـلام، لقد قرأت جميـع المذكّـرات المتعلقـة بـ«مـير حسينـي» ولا أدري إن كنـت أستطيع أن أُظهر عظمته. سأعود وأحاول جهدي. أشكركم لأنكم عرّفتمـوني إليه. لقـد حُفرت ذكراه عميقًـا في قلبي وإلى الأبد.

لقد وضعتُ جميع الأغراض والمذكّرات في العلب ثانية، ولم آخذ منها سوى صورته التي ستبقى معي للذكرى، والسلام».

أضعُ الورقة على العلب الكرتونية، ثم أنزعُ الصورة عن الحائط وأضعها في الجيب الأيسر لقميصي وأخرج.

تهبّ رياح ساخنة إيذانًا بقدوم الصيف. بيد أنّه في هذا الصيف ستلمعُ ذكرى مير حسيني كجوهرة على صدر هامون قلبي.

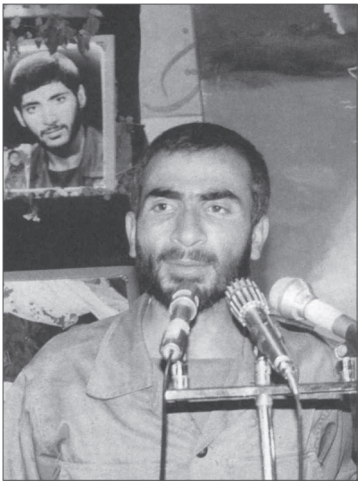

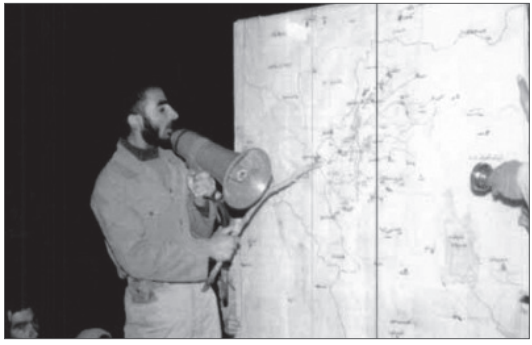

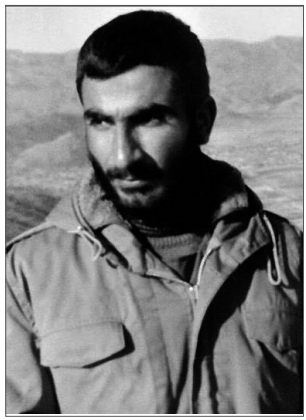

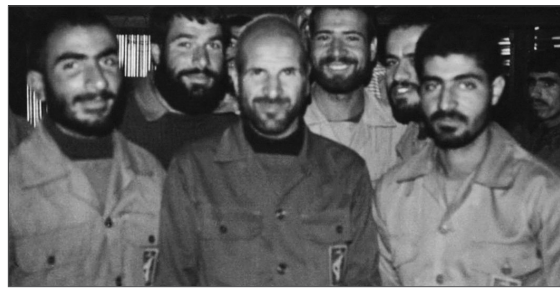

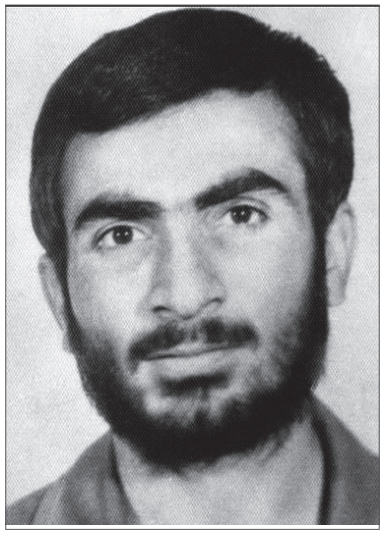

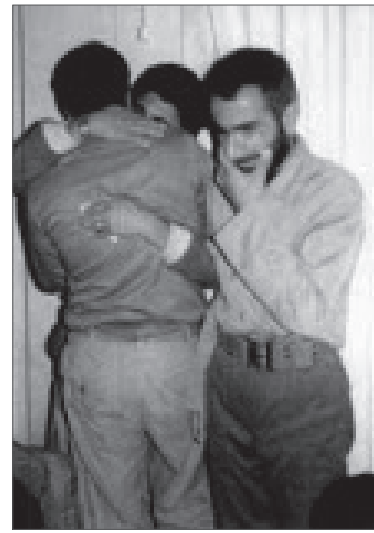

سلسلة سادة القافلة:

تصدر عن دار المعارف الإسلامية الثقافية

1. تراب كوشك الناعم

5. هاجر تنتظر

9. همت..فاتح القلوب

2. كاوه – معجزة الثورة

6. القدم التي بقيت هناك

10. حفلة الخضاب

3. قائدي

7. وداع الشهداء

11. فرقة الأخيار

4. كتيبة كميل

8. سأنتظرك..

12. قاسم سليماني (ذكريات وخواطر)

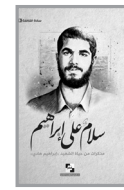

13 . سلام على ابراهيم **14** . نسائم الذكريات الندّية **15** . جوهرة هامون

يصدر قريبًا:

1 . الهداية الثالثة

2 . نور الدين ابن ايران

3 . ملحمة تل برهانى البطولية

4 . دا - أماه (ج1)

دا - أماه (ج2)

قيد الترجمة:

1 . تل جافيدي وسرّ أشلو (تپهٔ جاویدي وراز اشلو)

2 . کوچهٔ نقاش ها

3 . الفصيل الأول (دسته یك)

4 . القرآن في خنادق الجهاد

5 . نهج الأخيار (رسم خوبان)

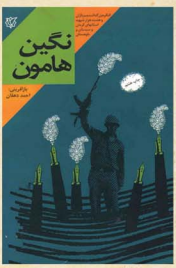

أصبحت ذكريات سنوات الدفاع المقدس ثروة وطنية عظيمة. وفي هذه الذكريات من الكثرة والتنوع والعمق والنطق ما يعجز أيّ لسان ناطق ولغة معبرة عن بيانها بأسرها وبكل أبعادها..

[الإمام الخامنئي ٦/٣/٢٠١٧]

"كان مير حسيني كبير فرقة "٤١ ثار الله"، وما زلتُ لحدّ الآن أشعر بغيابه في كلّ مهمّةٍ.. كان صاحب روحٍ عظيمة، وبمنزلة مالك الأشتر بكلّ ما للكلمة من معنًى.. كان خطيبًا؛ وإذا شرع بالكلام، يسحر القلوب.. أما في البعد القيادي، فكان صاحب الرأي الأكثر صوابيّةً في الجلسات.. وكان مجيئه عند تعقّد وضع الجبهة، كمجيء فرقة بتمامها.. كان أوّل من يتقدّم وآخر من يرجع.

[قاسم سليماني-ذكريات وخواطر]

مركز المعارف للترجمة: مركز متخصص بنقل المعارف والمتون الإسلامية؛ الثقافية والتعليمية؛ باللغة العربية ومنها باللغات الأخرى؛ وفق معايير وحاجات منسجمة مع الرؤية الإسلامية الأصيلة.

ISBN 978-614-467-000-2
9 786144 670002

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان - بيروت - المعمورة - الشارع العام
تلفون: 471070 1 961+ فاكس: 476142 1 961+
www.almaaref.org.lb
Email:info@almaaref.org.lb

printed by DB UK 00961 3 336218